ورحمتي سبقت غضبي

رواية

هالة حمدي

الطبعة الأولى

2020م- 1442هـ

ديوان العرب

للنشر و التوزيع

جمهورية مصر العربية - بورسعيد

عنـــوان الكتاب: ورحمتي سبقت غضبي

اســـم المـؤلف: هالة حمدي

التصنيف الأدبي: رواية

رقـم الإيـــداع: 22963 / 2020

الترقيـم الدولي: 7 - 46 - 6749 - 977 – 978

تـصـمـيـم الغلاف: م. شيماء منير

التدقيـق اللغوي: د. هبة ماردين

التنسيق الداخلي: محمد وجيـــه

رقـــم الطبـعـة: الطبعة الأولى

المديـــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر - بورسعيد

جوال: 00201211132879

البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقـوق الطبـع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجـوز بأي صورة إعادة النشـر الكلـي أو الجزئـي، أو نسـخه أو تصـويره أو ترجمتـه أو الاقتبـاس منـه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

ورحمتي سبقت غضبي

رواية

هالة حمدي

2020

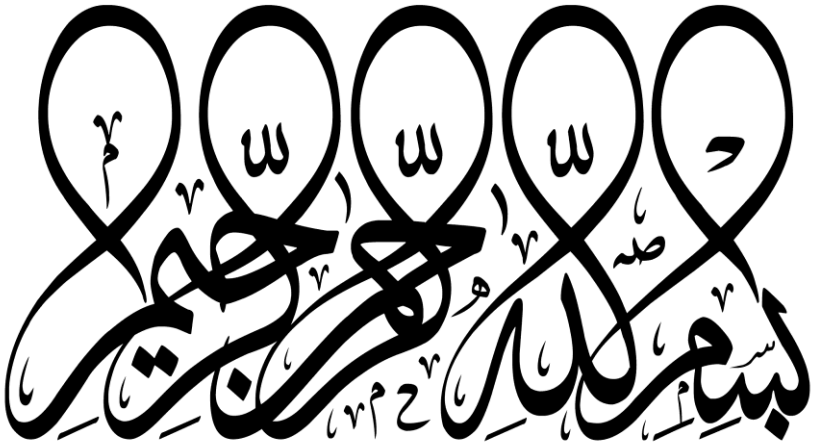
بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى كل قارئ وثقَ في قلمٍ جديد..

إلـى زوجـي الحـبـيـب..

إلى أبي الغالي من علمني قيمة الحرف..

إلى توأم روحي بدور عادل..

إلى شيماء منير التي لولاها لظل هذا العمل في طي الكتمان..

إهداء إلى كل قانطٍ، وساخطٍ، ومسرف، انتبه لحروفي جيداً..

هالة حمدي

****

الفصل الأول

"الجزاء من جنس العمل"

ماذا لو كان الجزاء ليس من جنسه، ولا يمت له بصلة..
ماذا لو كان جزاؤك كالقيد الذي يمنعك التقدم والتفكير..
فضيحة على رؤوس الخلائق في كل ذنب كبير أو صغير..
ماذا لو لم يكن الله معك
ستير
حليم
رحيم..
ماذا لو استنفدت رصيدك من الستر وبِتَ تسير في الحياة وقد كشف الله غطاءه عنك..

عندما تمتزج ألوان السماء الزرقاء باللون الوردي، وتنبسط المياه كصفحة ثابتة شاسعة دون حراك، وترى الجبال السود التي تضرب بصخورها بصلابة في الأرض فتفسد اللوحة الغنَّاء، وتمتد الجسور القاتمة وكأنها الصراط.. فاعلم بأنك في دروب متناقضة.

تنغرز قدميه في الطين تحته..

أرض ترابية ممزوجة بالماء فباتت كالفخار اللين قبل أن يشتد صلابة من الهواء والشمس، يوجه كلماته إليها

"ما الذي أتى بنا إلى هنا؟"

تتلفت ريفانا حولها والهواء يثير ثوبها البالي، وشعرها الأسود المنفلت من كعكتها الصلبة الكامنة خلف رأسها.

تتسع عينيها برهبة وهي تنظر لهذا المكان الذي لم يرد مصادفة في أحلامها، تنبسط ملامحها لرؤيتها ألوان السماء، وتنقبض عند رؤيتها الجبال السود المهيبة.

تشير خلفه فيلتفت ليرى أخته رتيل تقترب من بعيد تسحب شخصاً متمدداً أرضاً بحبل غليظ، وعندما رأته حاولت الإسراع إليه فتتباطأ خطواتها من الرمال التي تنغرز بها.

يجري نحوها فتتململ ضلوعه من معافرة الطين، وفي خط فاصل على تلك الجزيرة توقف تصطدم رأسه بشيء غير مرئي.. فيرتد إلى الخلف بقوة.

يكرر محاولته فيفشل.. يضرب فوق هذا الحائط الشفاف فلا يتفتت ولا ينزاح..

وصلت رتيل إليه، يرى تحرك شفتيها ولا يسمعها، وكأن هذا الحاجز عالم آخر رغم قربه منه إلا أنّه بعيد عن اجتيازه.

تراه ريفانا يضرب الحاجز من فوق كتفيه..

ولا زالت في حيرتها وخوفها غير المنطوق..

"أين نحن؟ لقد كنت في غرفتي فوق سريري.. ما الذي أتى بي إلى هنا؟!"

بخطوات ثقيلة اقتربت لتركز بنظراتها على الملقى أرضاً، وكتفاه محاطان بالحبل.. حبات التراب غبّرته فلا ترى سوى القليل من ملامحه.

انحدرت بنظراتها حول جسده، تتبين هويته..

حذاءه..

ساعته..

البنطال رغم اتساخه.. إلا أنه.. هو!..

شهقت تكتم خوفها بكفها

"إنه أخي.. سفيان"

ذرات الرمال على الجانب الآخر من الحاجز ارتفعت مشكلةً إعصار صغير من الرمال.. بينما جهتهم تشكلت حبات رمادية تشبه الرماد المشتعل المتطاير..

لتتبدل السماء بورديتها إلى سواد الجبال..

بدون قمر ينير أو نجوم تهدي..

لا يرون شيئاً ولا حتى كفوفهم.. انقشعت الرؤية وكأنهم نيام.. أو معصوبو العيون..

لحظات خلت إلا من أنفاسهم..

كان كنان يستند على الحاجز الذي اختفى فجأة فسقط بثقل جسده أرضاً..
يشعر بأنه مغموس في طين يبتلعه..
يستمع لصوت ريفانا خلفه..
"كنان.. أنا لا أرى"
شهقات أخته يسمعها الآن
"كنان هل أنت هنا؟ أنا خائفة.."
تخلص من الطين واستطاع أن يقف.. يطمئنهم
"أنا هنا.. بخير.."
وكأن أحدهم رفع غطاء الظلام في لحظة؛ فتبدلت العتمة إلى نور ساطع أغشى عيونهم للحظات..
صرخة أخته أفزعته فكان أول من تحامل على عينيه وفتحها..
نور بلا شمس.. ماء وسماء.. أين الجبال.. لا يعلم.. الطين الذي عانى منه.. لا يرى سوى أثره فوق ملابسهم.
يلتفت يبحث عن كل ما هو غائب حتى سمع صرخة ريفانا باسم أخيها
"سفيان أين ذهب؟"
لتقف رتيل تبحث عن الحبل الذي جرت سفيان به؛ فلا تجد شيئاً..
وقفت تبحث عنه بعينيها، ليقف كنان أخيها خلف ظهرها بظهره ويبحث هو الآخر؛ لترتعد ريفانا هي الأخرى ويغزو الفزع أوصالها وتستند إلى ظهورهم..

شكلوا مثلثاً من أجسادهم، كلٌّ يبحث بعينه في جهة..

-هل انتهى العالم

-أخبرني إن هذا حلم

-أين سفيان أخي.. أنا خائفة.

....

تسترق من القمر نظرات، تدغدغ قلبها فتطغى السعادة على قلبها، وتشع بوجهها ممتنة لتلك الوقيعة التي جاءت في طريقها، هي لم تتصيدها كعادتها ولم تتعب في ترتيبها، وصداها مدوٍ، كما يقولون صيدٌ سهل.

تتسع ابتسامتها وهي تستلم رسالة من ابنة خالتها ريفانا

"رتيل، لقد أخبرت سفيان بأمر تلك الفتاة وصرف نظر عن خطبتها.. أنتِ تعلمين أنه يدقق في أخلاق من سيرتبط بها، سفيان يريد بناء بيت أساسه المودة والرحمة يقوم على الدين القويم"

اتسعت ابتسامة رتيل تخبط كفها برأسها بمرح ترد على ابنة خالتها بتسجيل صوتي تصنعت فيه الجدية

"أعلم بالطبع، لا يليق بسفيان سوى امرأة خلوقة تحفظ بيته وشرفه، حمداً لله أنه لم يرتبط بها جدياً وأنه لا يجمعهما حب لكان الآن بقلب منفطر.. مكسور"

أجابتها الأخرى

"لا أعلم لماذا لا تتزوجان، فهو لن يجد من هي في أخلاقكِ يا رتيل، ليته يعلم بحبكِ له وتفانيكِ لأجله، أنا لن أخبره بأنكِ من أرسلتِ لي صور تلك الفتاة مع رجل في مطعم كي لا يظن بأنكِ تعطلين زواجه"

تكاد ترقص وهي فوق سريرها.. سفيان لن يعرف بأنها السبب في إفساد معظم خطواته للزواج.

"خيراً فعلتِ يا ريفانا، ما يهمني هو راحته حتى لو مع أحد غيري، سأخفي حبي له في قلبي طالما هو لا يرغبني، أبلغي سلامي لخالتي، تصبحين على خير"

ألقت هاتفها فوق سريرها وتمددت جواره، تتطلع في السقف بحقد يغاير مرحها وسعادتها منذ قليل...

"لا زال طريقنا طويل يا سفيان"

....

فوق الجزيرة الصافية، وعلى أرضها جلسوا ثلاثتهم، كنان يكاد ينتزع شعره من فرط التفكير.. يقول بشرود حانق

"أنا لا أعلم ما الذي اقترفناه ليحدث لنا ذلك!"

أجابته رتيل بذات الشرود لكن يغمره السكون

"قل ماذا لم نقترفه يا كنان!"

التفت إليها بعصبية

" ماذا تعنين يا رتيل؟"

قالت ريفانا تقطع شجار الأخوة المعتاد بحدة

"أنا في وادٍ وأنتم في آخر، سفيان أخي اختفى من تلك الجزيرة الملعونة، لقد كان أمامنا قبل الظلام، ما الذي حدث؟"

يمسك كومة من الرمال بقبضته، يقذفها وقبل أن تصل للمياه تناثرت حباته لتدخل في عينه.

"لابد من إيجاد حل، لو بقينا هنا سنموت، لا أشجار نأكل منها ولا مراكب تمر من هنا، أنا لا أعرف أين نحن من الأساس"

تفرك ريفانا كفيها، تحاول التركيز ربما هي السبب في وجودهم هنا.. ربما..

....

يلملم ثيابه الملقاة أرضاً.. يهز النائمة فوق الفراش، يرتدي ثيابه وهو يتحرك نحو الحمام، فأكثر ما يكرهه من علاقته بتلك الصغيرة هو عدم خبرتها، وغبائها في بعض الأحيان

"سفيان.. انتظر"

تستوقفه وهو يرتدي قميصه، تنظر لعمق عينيه

"لقد وعدتني بالزواج، سفيان.. لا يمكنني مواجهة أهلي بما حدث بيننا"

يثرنه الصغيرات لهذا السبب، لم تكمل عامها الثالث في كليتها إلا وأسقطها مستغلاً براءتها وعدم خبرتها؛ ليستدرجها فيفك غلافها بنفسه واثقاً بأنه الأول في حياتها، لكن ليس الأخير بالطبع.

يهز رأسه لها، يوافقها قولها، يمنحها ابتسامةً عذبة، وما إن التفت تبدلت هيئته

"سأطلب لكِ سيارة تقلكِ إلى منزلكِ، فأنا لدي عمل هنا قبل المغادرة"

تغطي نفسها بالشرشف الثقيل يحميها، بردٌ يوخز روحها الخاوية وجسدها العاري.

أول الوصايا.. اختر ضحيتك من أماكن متفرقة، بعيدة عن عملك.. بيتك.. معارفك..

وهكذا يفعل، اليوم على الانترنت، غداً من جامعة كبيرة، وبعد غد من مقهى.

يتأكد من عدة محادثات من عذريتهن...

وهناك من يراها فيعلم على الفور دون محادثات، فقد بات صائداً ماهراً. يهتم بجودة الطعم، وقوة الشِباك، حتى لا يخرج بصيد فاسد

....

تقابل المياه الراكدة بجسدها، تجلس القرفصاء، تتلو طلاسمها بتعويذة ربما أفلحت واخرجتهم من هذا المكان الذي سيقضي على تعقلهم.

خلفها رتيل وكنان يخططان لاستكشاف الجزيرة، التي هي من الأساس مكشوفة للعين بلا أشجار أو جبال تحاوطهم الرمال التي هم فوقها، والمياه تحيط بهم من كافة الاتجاهات.

تتمتم ريفانا بكلمات غير مفهومة، تغمض عينيها وكأنها تتواصل مع أحدهم، يرتعد جسدها، وتتصلب أطرافها، وتسقط أرضاً بلا حراك، بعينين زال سوادهما وبقيت بيضاء فقط.

زلزالٌ ضرب الجزيرة، تهتز الأرض من تحتهم، صرخت رتيل:

"ما الذي يحدث؟!"

يمسك يديها يثنيها عن الوقوع، يلتفت برأسه ليجد ريفانا ملقاة أرضاً..

الأرض لازالت ترتعد، والمياه الراكدة بدأت بالارتفاع، ليرى الموج يرتفع ويضربهم حيث هم.

أفلت يد أخته رغماً عنه، وما إن سقطوا أرضاً حتى ثبُت كل شيء وكأن شيئاً لم يحدث.

"ريفانا!"

صرخت رتيل متوجهة نحوها تلمس نبضها، عينيها مغلقة، تهز رتيل وجهها تدفعها لأن تستفيق.

"ساعدني يا كنان"

يحاولون إسعافها، ولا تستجيب..

تبكي رتيل بيأس، ويفترش كنان الأرض بقنوط، لا يعلم سبباً لما يحدث، ولا يملك معطيات ليتوقع النتائج.

الحسبة هذه المرة خسائر فقط..

....

"لقد حان وقت السداد يا عم مرزوق"

ينحني الساعي أمامه ليضع كوب الشاي الذي طلبه كنان، يجيبه بانكسارٍ:

"أطمع في كرمك سيد كنان، لو يمكنني تأجيل وقت السداد، فابنتي لم تجد عملاً بعد لترد الدين"

يستند برأسه على كرسيه، يهزه بعصبية:

"لقد أقرضتك أنت لا ابنتك"

"أسبوع آخر"

يبتسم بجانب وجهه ويقول:

"وزيادة أخرى"

تنهد الرجل بحسرة، لايمكنه سوى الموافقة:

"حسناً يا سيد كنان، زد ما شئت، سأرد الدين الأسبوع المقبل إن شاء الله"

أشار له بالإنصراف عندما لمح زميل غرفته يدلف إليها

"كيف حالك يا ساري"

يستكين فوق كرسيه ينهت من صعوده للسلم، ترتسم علامات الانهاك فوق وجهه

" يبدو أنك لم تنم جيداً بالأمس"

يضحك ساري وهو يفتح أدراج مكتبه يخرج الأوراق ليبدأ عمله

"وكيف سأنام وقد ألحقت بالجميع خسارة بالأمس، جعلتهم يقسمون بألا يجتمعوا معك على طاولة أخرى."

يستند كنان على مكتبه بكوعيه، يضحك بخبث

"ألم تقبض ثمن استضافتك لنا يا ساري، لمَ الغضب إذاً؟ "

ينغمس في أوراقه، يقول بصوت منخفض:

"لنتحدث لاحقاً خارج العمل يا كنان، ليس هذا مكانه."

يمط شفتيه للأمام مبتهجاً عندما تذكر غنيمة الأمس، لقد كان عدد منافسيه كبيراً، والمكسب كان أكبر.

....

تلمس رتيل أسفل صدرها بيد مرتعشة، موضع قلبها، وقد احترقت بلوزتها من موضعه فقط، لم تجد ناراً ولم تلسعها حرارة، فجأة وضعت يديها في هذا المكان، وجدته محترقاً، بات موضع قلبها ظاهر للعيان، لا يسترها شيء.

ريفانا انتفضت فجأة منذ لحظات كمن بُعث بعد الموت..

كنان ببنطال محترق الجيوب، يظهر أعلى فخذيه مستور العورة..

ينظر حيث نظرات رتيل.. يرى لحمه العاري.. وكأن موضع جيوبه احترق.. ولا يعرف متى..

ريفانا ساكنة.. متعبة..

تكاد تجزم بأنها السبب في وجودهم هنا، يبدو أن تعاويذها فاشلة وربما معكوسة، تدس يديها في شعرها الأسود القصير بإنهاك، لازالت تشعر بتعب يستشري في أنحاء جسدها.

يستمعون لصوت ثورة المياه عن يمينهم..

وشيء أسود يقترب منهم في المياه لا يعلمون ماهيته، سمكة قرش.. حوت..

أصبحوا يتوقعون كل شيء وأي شيء..

فعلى هذه الجزيرة رأوا مالم يرونه على مدار أعمارهم...

تتحرك المياه لتنقل هذا السواد المجهول إليهم..

ترتفع بقسوة لتقذف ما تحمله أرضاً.

يستقيمون في خط واحد يستقبلون عطية البحر...

"سفيان"

صرخة ريفانا شقت عنان السماء التي لم تُظلم حتى الآن؛ فلا يعلمون كم مر من الوقت إلا بجوعهم وعطشهم...

يهتف كنان باسمه بتوسل وهو يهز جسده

"سفيان.. استيقظ أرجوك"

يضغط على قلبه.. بطنه.. يعطيه قبلة الحياة التي لا يعلم كيف هي؟

"ليس هكذا يا كنان"

تحدثت رتيل بصوتٍ عالٍ:

تضع كفيها فوق صدره تعيد تنشيطه، تراقبهم ريفانا بيأس اكتنفها، ثلاثتهم لا يعرفون كيف يسعفونه.

تجمعت الدموع في عينيها؛ فبسبب شعوذتها فقدت أخيها.

همد ثلاثتهم أمام جسد سفيان..

وانتبهوا الآن إلى أنه لا يستر جسده إلا القليل..

ينعون حظهم..

كنان كالمجنون..

ريفانا مفجوعة في أخيها..

بينما رتيل أصابتها حالة من الهلع، ليتها تعرف السبب، ظلت تضرب وجهها علها في حلم وتستيقظ..

تتحدث إلى نفسها:

"استيقظ يا سفيان وسأفعل ما طلبته مني، فقط استيقظ."

****

الفصل الثاني

وكأنه استمع لما يدور بخاطرها ففتح سفيان عينيه على اتساعهما وآخر ما يتذكره عندما استيقظ ليجد نفسه وحيداً في هذه الجزيرة، وما عاناه ليجد ريفانا.

يستقيم بجذعه ولازال ممددَ القدمين أرضاً؛ فالتفوا جميعهم حوله متعجبين من استفاقته اليسيرة التي لم تكلفهم عناءً، ولا هو، فلم يخرج من رئتيه ماء وهو الذي نجى من الغرق منذ قليل، ولا يعاني دواراً، يتحدث إليهم وكأن شيئاً لم يكن.

"سفيان أخي، هل أنت بخير؟"

هتفت ريفانا تضمه إليها، بينما كنان يقف وكأن البرق ضرب شعره مصدوماً، ورتيل تتمسك بيد أخيها تخشى فقده، تحتمي به، تدقق النظر بسفيان الذي استجاب لأمنيتها.

شعور بالرعب اجتاحها، قشعريرة باردة سرت في أطرافها،

صوت رعد بالسماء نهاراً، برقٌ ضرب الرمال أمامهم ليُشكِل مربعاً مجسماً يُعرض به شيء.

توجه أربعتهم نحو المجسم، إنها رتيل.. بغرفتها، تحمل هاتفها، وكأن أحدهم يصور ما تفعل بكاميرا عالية الجودة؛ فظهرت أدق التفاصيل..

لوحة المفاتيح وهي تكتب

"أنتِ طيبة يا رفا، لا تثقي بأحد عزيزتي فالجميع يتحدث خلف ظهرك بكلمات لا يمكن وصفها"

فتجيبها الأخرى، والكاميرا لازالت تقترب من المحمول خاصتها فيسجل كل شيء:

"أخبريني ماذا يقولون يا رتيل، لا تتركيني هكذا، قولي لي هذا يحبك وهذا لا، حتى ابتعد عمن يكرهني"

تلتفت الكاميرا نحو وجهها المبتسم، ثم نحو هاتفها وهي تفتح معرض الصور، وتختار محادثة بينها وبين إحداهن وتضغط زر الإرسال، بينما تفتح محادثة أخرى على الواتس آب وتحاول إرسال مقطع صوتي من تلك المحادثة إلى صديقتها.

"أنا لا أصدق بأن رؤى تقول هذا عني، وسارة.. صديقة عمري، تتحدث عني هكذا"

كان ردها كتابياً.. وبعد لحظات مقطع صوتي لرفا تبكي، تشهق صدمةً فيمن أحبتهم ووثقت بهم:

"أنا لا أصدق، يا إلهي، ألهذا الحد يبلغ الحقد بين البشر إحداهن تخطط لسرقة خطيبي والأخرى تحسدني على أسرتي، هؤلاء هم أعز أصدقائي!!"

فتدور الكاميرا نحو وجه رتيل الذي يشع خبث ولؤم وهي تمشي بين أصدقائها بالنميمة مفرقة بينهن.

لحظات وتبدلت الصور التي تعرض إلى الجزيرة..

لتظهر صورة رتيل وموضع قلبها يحترق بضوء أخضر يشبه الليزر لم تنتبه له.

صوت الرعد يتجدد، والبرق يضرب تلك الرقعة المربعة، فتنغلق الشاشة، ترجع للخلف مصعوقة مما شاهدت. والأنظار جميعها تتجه نحوها.

....

تبحث بين كتبها عن مرجع علمي تحتاجه لمراجعة تفصيلة تخص عملها، هذا المكان المهمل من البيت المسمى مخزن، تتوسطه ريفانا، تعبث بأصابعها هنا وهناك، مجلات لأخبار النجوم، مجلات أخرى عن فضائحهم، تبتسم وهي تتعرف على اهتمامات سفيان.

كادت أن تقع وهي تتعرقل بإحدى الكتب الملقاة أرضاً، وما لفت انتباهها أن عنوانه لا يمت بكتب القانون خاصتها بصلة، ولا بالأخبار النسوية الفارغة التي يهتم لها سفيان.

"شمس المعارف"

التقطته بين يديها، فتحته، وما إن فعلت حتى بدأ الكتاب في فر صفحاته وكأنه انتظر طويلاً سجيناً مقفلاً حتى يحرره أحدهم.

حاولت قراءة ما يقع عليه عينيها، تنطق شفتيها ولا تستطيع التوقف.

وتشعر وكأن شيئاً يسحبها نحوه، وكأن أحداً خلفها.

خوف مقيت هاجمها؛ فتركته بفزع من يديها يسقط أرضاً مفتوحاً غير مغلقٍ.

تهرع مغادرة الغرفة بخوفٍ، وكأن الشياطين تلاحقها.

وصلت غرفتها، أغلقتها بالمفتاح في بادرة لم تحدث كثيراً منها.

ترتعد أطرافها.. تتخبط سيقانها.. لا تعلم كيف تصف حالتها.. إلا أن الفزع ينازعها، والهلع يكتنف روحها.

....

رقم غير مسجل على هاتفه يرن، فيجيب سفيان مستفهماً عمن يحدثه

"هل نسيتني يا سفيان؟، أنا ضي"

تزعزعت عينه عن ثباتها، يتساءل من أين حصلت على رقمه الجديد!

هو حريص في تلك الأمور، يضرب ضربته ويفر.

"كيف أنسى ضي الخجول المتوهجة، كيف حصلت على هذا الرقم حبيبتي، إنه رقم خاص بالأعمال"

تتنفس بجهد تتجاهل سؤاله:

"أنا حامل يا سفيان"

تحشرج صوتها بالبكاء البريء الذي يعلم صدقه:

"أنا لا أعرف ماذا أفعل!"

تشهق باكية:

"أنا خائفة"

يستمع لكلماتها ببرود، رغم أنها المرة الأولى منذ بدأ لعبه باصطياد الفتيات ولم تفشل واحدة كهذه وتعيد اتصالها به، ضي في محافظة أخرى، كيف حصلت على رقمه.

" أجهضيه"

قالت وهي تتعلق بكلماته، فتلك البريئة لم تخطُ هذه الخطى من قبل، فتتعلق بمن هم أهل الخبرة مثله

"ابحثي عن طبيبة يا ضي وأجهضيه حتى أجد الوقت لخطبتكِ"

هكذا يسكن ألمها ويمنحها الأمل في الزواج منه بعد إجهاضها ليتخلص من حمل عفن يسقطه قبل أن ينقل إليه عفنه.

"حقاً يا سفيان ستأتي لخطبتي؟"

"بالطبع"

"لقد.. لقد مر شهرين على آخر لقاء جمعنا"

"منهمك في العمل يا ضي، عليكِ أن تتفهمي طبيعة عملي، أخبريني من أين أتيتِ بهذا الرقم"

"أبي.. أبي جاء.. عليّ المغادرة الآن، سأتحدث إليك لاحقاً"

وفور إغلاقها المكالمة.. أخرج شريحة هاتفه ووضعها تحت قدميه يتلفها وهو يقول:

"لن يكون هناك لاحقاً يا ضي"

....

صدمةٌ علت الوجوه وألجمت الألسنة، إلا وجه رتيل الذي اغرورق بالدموع مجيبة بنعم على تساؤلات أعينهم، تتراجع إلى الخلف في محاولة منها للهروب، بينما الباقي تجمح عقولهم نحو "من التالي".

جلس سفيان الذي لازال على حاله أرضاً، لا يستر جسده إلا القليل، وكنان يغمض عينيه بكفه يخشى فضيحة صنيعه على الملأ.

وريفانا تضع كفها فوق فمها تجاهد لتخفي شهقاتها وخوفها.. ماذا لو علم الجميع بأنها السبب في نفيهم لتلك الجزيرة.

فاق كنان أخيراً ينزع كفه عن عينه يتحدث إلى أخته

"تمشين بين الناس بالوقيعة!"

يشيح بيده بانفعال

"ومن سيتبقى لكِ، من سيثق بكِ لتكوني له صديقة وكاتمة أسرار بعد أن يذيع صيطكِ بما تفعلين؟"

ومن بين دموعها تواجهه:

"ولماذا يتركون لي الفرصة لفعل ذلك، لماذا تحقد كلٌّ منهما على الأخرى، المتزوجة تحسد الحامل، والحامل تحسد الغير متزوجة، من لا تنجب تحقد على من تحمل أطفال، المريضة تحقد على الصحيح، نتجالس.. ونثرثر.. وبمجرد قيام إحداهن يبدأنَ في الكلام عنها، أنا فقط وسيلة ليعلمن ما يخفى عنهم"

قال سفيان بوجه منحنٍ أرضاً:

"ومن طلب منكِ ذلك، ومن قال بأنه يجب أن يعلمن ما قيل خلف ظهورهن، ما تقولينه يحدث..."

يتنفس بعمق مؤلم ويردف

"بيننا"

ارتدت خطوات إلى الخلف.. توجه نظراتها نحو ريفانا بتساؤل: هل أخبرته؟"

فتفهم الأخرى دون حديث، تهز رأسها نفياً..

يرفع سفيان وجهه نحو رتيل

"لقد علمت بأنكِ من خربتِ خطوبتي من العديد من الفتيات يا رتيل"

تجيبه مصعوقة:

"كيف عرفت؟"

تنظر نحو ريفانا مجدداً، فتنزل إجابته عليها كالسوط

"لقد ضرب البرق الرمال وفتحت نفس الشاشة لي.. وأنا وحدي"

جرت ريفانا تحتضن كتفيه وتقول

"أين كنت يا سفيان"

ينظر لبراءة وجهها، ليت رتيل تتعلم منها

"على الجانب الآخر من الجزيرة"

يتمهل كنان في الاقتراب منه ليسأله، عله يجد مصدراً للطعام أو العودة

"كيف وصلت إلينا يا سفيان، وأين ثيابك؟، ومن ألقاك في البحر وكيف وصلت إلينا؟"

"أين ريفانا؟"

"في غرفتها يا أمي، هل تحتاجين لشيء منها؟"

تربت على كتفه بحب؛ فيلتقط كفها يقبلها ويقول:

"قولي لي ما تريدينه كله، طلباتكِ أوامر يا أمي، إنه دوري في العناية بكِ لا تحرميني من خدمتكِ"

"ماذا يمكنني أن أطلب وأنت لا تقصر في شيء منذ وفاة والدك، حماك الله يا ولدي، ورزقك بابنة الحلال التي تستحق قلبك النقي"

يغطيها سفيان بعد أن ناولها دواءها، يجلس تحت قدميها، يفتح نافذتها ليتجدد الهواء بها وتشرف الشمس على تنقيتها.

يراها تغفو قليلاً، فتركها ترتاح..

يدخل غرفة ريفانا التي اندمجت في مراجعة أبحاثها يسألها

"ماذا أحضر للغداء اليوم؟"

يغمز لها ويردف

"لأعده لأمي بينما أنا سأعزمكِ على الطعام من الخارج"

تهللت أساريرها، فهذا الخبر أعاد لها الدماء التي تجاهد لاستعادتها منذ يومين، منذ فتحت الكتاب..

كوابيس تداهمها فور نومها، خيالات تشغلها وتتجاهلها لكنها خائفة.

لولا وجود سفيان اليوم معهم، لكانت تطارد أشباحها في غرفة والدتها وفي المطبخ، في الأركان والزوايا.

أحضر متطلبات الطعام لوالدته، يشمر أكمامه، ويشرع في تقطيع الباذنجان ليقوم بشويه، يضرب الطماطم بالخلاط.

لقد كان يلاحق والدته كلما دخلت المطبخ في صغره حتى أتقن الطبخ بشدة.. أمه الغالية، التي آلمه مرضها، وتقتله رقدتها، يحاول تحقيق ما تتمنى حتى وإن كان ضد رغبته.. إلا رغبة واحدة.. واحدة فقط.. لا يمكن أن يوافقها عليها.

....

منذ أن استفاق من غرقه وتوالي الأحداث لم ينتبه لما يرتدي، ثوب داخلي يستره فقط، يتعجب من شكله، فهو أبداً لم يقتنِ مثل هذه الألوان.

يترك إجابة كنان عن سؤاله، ويشرد فيمن بدل له لباسه.

وسؤال يتمكن من حواسه، يتردد بين جنبات عقله

"هل هناك من أحد معنا في هذه الجزيرة، وماذا لو كانوا أشراراً"

يبتسم بينما الجميع يترقب جنونه، ولا زال يتحدث إلى نفسه

"وهل هناك من هو أشر منه، ومن رتيل؟"

تتسع ابتسامته ليصرخ فيه كنان يكرر سؤاله:

"أين كنت يا سفيان، وأين ثيابك؟، ما الذي حدث ليبتلعك البحر هكذا؟"

قالت رتيل بشرود:

"لماذا تضحك؟، هل ما نحن فيه مضحك إلى هذا الحد؟"

صفعته بكلماتها التي استشعر الخوف والقنوط فيها فقال:

"كنت على الجانب الآخر من الجزيرة"

يشير كنان بكفيه ويدور باتساع يطالع الفراغ حولهم ويقول:

"أي جانب، ولو كنت على بعد أميال لرأيناك.. ألا ترى هذا الفراغ الذي نسبح فيه جميعاً، ألم تعي بعد أننا لا نعرف كم مكثنا هنا، نحن في درك جحيم سحيق لا نستطيع الخروج منه وأنت تضحك"

انعقد حاجباه بشدة والجميع ينظر إليه وكأنه سفيه، فقالت ريفانا بتركيز

"ربما تبدلت الأرض به كما تبدلت من قبل، نحن لا ندري أي شيء، ولا نملك دلائل على أي شيء.. لماذا نحن هنا؟، من السبب في قدومنا هنا، ولماذا تتبدل الأرض؟"

اهتزاز خفيف تحت أقدامهم، أشياء تشبه الخشب تبدأ بشق الأرض مرتفعة.

أربعة أخشاب سميكة قوية عارية تستمر في الارتفاع خطفت أبصارهم يتابعون ارتفاعها، ومن ثم بدأت الأخشاب في إنبات أخشاب فرعية، يرونها تُكسى بالأوراق الكثيفة، فكانت الأخشاب القوية ما هي إلا أشجاراً، أربعة أشجار، الأولى شجرة أراك التي يصنع منها "السواك"

والثانية شجرة الآس "ريحان"

والثالثة شجرة تين..

أما الأخيرة فكانت نخلة.. ينبت فوق عروشها البلح.

يخفضون رؤوسهم في ذات اللحظة لتتواجه النظرات، والشفاه مدلهة، والعيون متسعة..

يتساءل جميعهم في نفسه:

"هل فتحت لهم أبواب الجنة أخيراً، أم هي استراحة محارب"

يجهلون القادم، ولا يحملون رؤية أو تفسيراً.

انحنى سفيان بجذعه العاري؛ ليجلس ويستند بظهره على شجرة التين، يطرق بمؤخرة رأسه برتابة:

"هذه الأشجار لا تجتمع في بيئة واحدة.. شجر الأراك يناسب الأماكن الحارة، والريحان يناسبه الخريف"

تجلس ابنة خالته رتيل مستندة على شجرة الريحان أمامه تكمل عنه حديثه:

"بينما زراعة التين يناسبه الشتاء، والتمر.."

قاطع حديثهم كنان صارخاً:

"توقفوا عن سرد معلومات بلا قيمة، وما الذي يحدث هنا طبيعي أخبروني، قم يا سفيان ساعدني في هز تلك النخلة ربما أسقطت علينا بضع تمرات تسد رمقنا"

يبتسم سفيان بكسل، يجيبه:

"لو استمعت لتلك المعلومات التي بلا قيمة لعلمت أن هذا التمر لم ينضج بعد ليسقط"

يخبط وجهه بيأس، وهو يرى ثمار البلح الذي يعلم جيداً ببطء نموها..

ينظر سفيان إلى رتيل بترقب ويقول:

"ألا زلتِ تذكرين تلك المعلومات"

تجيبه بإرهاق:

"لقد تعبنا لأجل جمعها، وظننا بأن خروجنا إلى الكشافة سيحتاج هذه المعلومات، إلا أنها كانت رحلة من اللامسؤولية والمرح"

جلست ريفانا متربعة تتابع تقاطع حديثهم، وتقول وقد هدأت نفسها برؤية هذه الأشجار:

"أشعر بأن ما يحدث الآن خيراً، بداية لطريق النجاة، أنا لا أملك تفسيراً لما يحدث لكني أشعر بذلك، على الأقل نملك موردَ رزقٍ"

قال أخيها:

"معطل، مورد رزق معطل حتى تنضج الثمار"

تستند ريفانا بكفها تتحدث إليهم بجدية:

"ماذا لو كان سببَ وجودنا هنا الآن هي ذنوبنا؟"

ترتعد رتيل وقد لمس ما قالته ريفانا أفعالها بالوقيعة والنميمة بين أصدقائها..

تلك المصيبة التي لم تعد ذنباً من ذنوب الخلوات وإنما علم بها الجميع..

صوت حفيف الأشجار فوقهم أوقف حديثهم، ليرتفع بصر الأربعة لأعلى..

وورق الأشجار من كل شجرة خرجت من الأرض للتو يسقط، ثم يلتف بسرعة مدهشة ليشكل دائرة، كدائرة الساعة، يستمعون لصوت دقات حركتها، ويشاهدون اقتراب عقاربها جميعها تشير إلى رقم واحد..

ثم تختفي الساعة تدريجيًا لتظهر صورة ريفانا وهي في غرفة لا يعرفوها، ولا زالت الأشجار تلتف حول الدائرة التي تعرض تلك الصورة.

تدخل إليها إحداهن، تتحدث إليها بصوت خفيض، ومن ثم تصمت ريفانا وتغمض عينيها، وكأنها تتواصل مع أحدهم..

فيظهر في زوايا الغرفة كائنات متوهجة، ليس لها شكل محدد..
يقتربون من ريفانا بخضوع، فتخبرهم مشيرة إلى أنحاء الغرفة، وتتمتم بتعاويذ وكلمات غير مفهومة، وكأنها تأمرهم بحماية المكان أو ما شابه.
لتتلاشى الصورة، وتهدأ سرعة التفاف الأوراق، لتسقط فوق وجوههم ومنها إلى الأرض.
القلوب تقرع بلا توقف، لو أنّ هناك قياساً لضغط الدم لكان مؤشره على الارتفاع لجميعهم، تتوقف الأنظار فوق وجهها الذي جف من شدة الإحراج.. لقد باتوا قاب قوسين أو أدنى من كشفها.
قال سفيان أخوها، وقد كان أول من تمالك نفسه:
"ما هذا؟"
لا يجرؤ على نهرها، أو الصراخ بها، وهو الذي يقيده ذنبه الجلي، الذي ما إن يرونه فوق شاشة كتلك لن يسأله أحدهم عنه، فهو واضح كسطوع الشمس.
تبكي بشدة، تشهق وقد سال أنفها
"أقسم بأني لست ساحرة، ولا مشعوذة، أنا..، أنا أفك السحر بالسحر"
يخبط كنان بكفه على شجرة النخيل فأدمت يده من صلابتها، بينما سفيان أخيها مصدوم مما تقول، كيف لم يلحظ شيئاً عليها، التهى بملذاته لهذه الدرجة، أم هي الحريصة لهذه الدرجة!
رياح قوية بدأت تهب بشدة، تثير الرمال لتزكم أنوفهم وأعينهم.

تحثهم على تغطية وجوههم بأكفهم يحاولون حماية أنفسهم، يستمعون لصوت قوي يتخلل صوت الريح، ولولا شدتها واهتزاز أجسادهم التي أوشكت على الطيران، لسمعوا صوت انشقاق الرمال وخروج جبال منها، سوداء، تشبه التي رأوها من قبل، تشمخ بإباء وقوة دلالة على عظمة خالقها..

بسكون العاصفة الرملية، انزاحت أكفهم عن وجوههم ليروا تلك الجبال التي انقبضت قلوبهم عند رؤيتها، متسائلين عن كون هذه الجبال عذاباً، أم نعيماً!

****

الفصل الثالث

يلتف حول طاولة القمار العريضة داخل الفندق الشهير، وقد أراد كنان التوسع في اللعب هذه المرة، لقد أتقن فنون اللعب هنا بعد زيارته ثلاث ليال مستمرة.

يترقب تلك الكرة الصغيرة التي تلف، الأرقام، الأوراق، وعدد من العملات التي تمثل ربحك أو مكسبك وتقوم باستبدالها بالمال.

إنها المرة الأولى التي سيشارك فعلياً بعد مشاهدة عميقة لمجرى اللعب لمدة ساعتين.

ينضم لصفوف اللاعبين، يطمح في فوزهم باكتساح، سيغامر في المرة الأولى بمبلغ بسيط ومنه لأعلى..

سيراقب حظه، وهذا ما سيحدد المغامرة.

راهن.. حدد المبلغ.. تدور الكرة.. ويدور معها قلبه الذي يرقص طرباً، فإن فاز في تلك الجولة، سيكررها.

توقفت الكرة، وخسر..

لكنه على عكس ما خطط، كرر اللعب، وزاد المال.. لكن الشيء الوحيد الذي حرص على عدم تغييره، هو مراقبة الكرة، وقلبه يخفق.

هذه المرة ربح، يصدر ضحكات فرحة، فيهنئه الجميع..

فيكرر اللعب، ليتكرر ربحه، وتتسع حافظة نقوده لجني المزيد من المال.

....

رغم هلعها وخوفها من هذا الكتاب، والخوف الذي بدأ يتملكها وكأن أصابها مس.

إلا أنها لم تتوقف عن البحث على الإنترنت عن هذا الكتاب.

هنالك من يقول بأن هناك نسخة واحدة أصلية منه قد ألقاه أحدهم قديماً في النهر ليقي البشرية شره، وهو كتاب يجمع أكبر التعاويذ والطلاسم الخاصة بعالم الجان..

لازال الفضول يحوم حول أصابعها؛ فتبحث عن أساليب فتح الكتاب والتعامل معه.. علمت بأنه يجب أن يكون خبيراً، وليس هاوياً فيتسبب في مصيبة له ولمن حوله.

لا تعلم هل الكتاب أسطورة، أم ما تقرأه حقيقياً، فيقول البحث الذي تقرأه أنه بمجرد فتح الكتاب وقراءة ما فيه، يخرج الجن منه وينتشرون في المكان، ومن ثم لا يستطيع أحد إخراجهم إلا مختصاً عالماً في أمور الجان.

بدأت تبحث وتبحث..

كيف تكون خبيرة..

كيف يمكنها صرف الجن الذي أخرجته من الكتاب..

حالة والدتهم تسوء..

تصرخ ليلاً ولا يعلمون السبب..

باتت تتشاجر هي سفيان على أتفه الأسباب بعد تفاهمهم الذي كان يحسدهم عليه الجميع..

كوابيس مزعجة حتى باتت تخاف أن تغفو..
حالة من الهياج هي تشعر بها جيداً منذ قامت بفتحه.
تقرأ في أعمال السحر وترى صوراً لأعمال مدفونة داخل فم الأموات..
مربوطة في عنق الأطفال المتوفين..
تشعر بالاشمئزاز، وبات التقيؤ على أعتاب فمها مما رأت..
استغاثات عن منازل تحترق بلا سبب، عن أزواج مربوطة أرزاقهم، طلاقات، وقتل..
لو كانت تقرأ هذه الأشياء قبل فتحها لهذا الكتاب لقالت بأنه محض خيال، وكلامٌ فارغٌ ينم عن جهل صاحبه، إلا أنها جربت، ورأت، وأيقنت بوجود تلك الأشياء..
تغلق حاسوبها فور مناداة أمها لها، تهرع إليها.. تلملم ما سقط من فمها سريعاً، تمسحه عنها بمحارم ورقية، بينما عينيها تتشنج وترتفع لأعلى وكأن أحدهم يقبض روحها..
تبتعد ريفانا لتصطدم بالحائط خلفها، هلعة مما ترى وغير قادرة على إيقافه، شل جسدها وأفكارها وهي تراقب جسد أمها يهمد بلا حراك.. وكأن أحدهم تغذى على روحها.

....

تحتفظ بكمية قليلة من المياه بكفها، تضع فيه أوراق التين تنقعها، لقد سمعت عن قدرتها على الاستشفاء ومعالجة الجروح.

مر الوقت ببطء وكل منهم يأخذ مكاناً بعيداً عن الآخر يفكر فيما يحدث، بينما هي تتقدم نحو كنان، تشير له بأن يشرب من تلك المياه، ثم قالت:

"ضع جرحك داخلها"

ينظر إليها عاجزاً عن تفسير ما يحدث داخله

"هل ألقيتِ عليها من سحركِ؟"

عم تأنيبه لها قلبها فأغرقه، ومن شدة برودة كلماته التي حاوطت قلبها جمدته.

تحاول إغراق جرحه في القليل من الماء بين يديها، تتجاهل كلماته التي أسهب في لفظها:

"هل كنتِ سبباً في موت خالتي يا ريفانا؟"

يستطرد مؤنباً مشدداً على كلماته:

"أمكِ!"

وعند هذا الحد الذي ذبح حقيقتها، أسقطت كفه والمياه أرضا، تمنحه ظهرها منصرفة بكتفين متهدلين أكدا على صحة شكوكه.

تنأى بنفسها عنه، لربما سؤاله المقبل

"هل أنتِ السبب في وجودنا هنا؟"

وهذا السؤال لا تجرؤ على الإجابة عنه، وإحساسها بالذنب يأكلها.

تتسلل بيديها داخل بلوزتها، تمزق شيئاً ترتديه متعلقاً بكتفيها، ومن ثم تخرجه من بنطالها، وتخلعه عنها من الأسفل.

تتقدم نحو سفيان وتمنحه إياها

"ارتدي هذه على خصرك، فهذا اللباس يظهر أكثر مما يخفي"

وقف يتناول عنها فانيلتها التي مزقتها لأجله، يرتديها ويحكمها حول خصره كي لا تسقط.

انضمت رتيل إليهما، تجذب يد كنان معها، تسحبه بقوة.. تبدأ الحديث معهم:

"حسناً، ما يحدث هنا عبارة عن إشارات علينا أن نقرأها، ربما هناك شفرة علينا حلها للخروج من هنا.. وأنتِ خير أحد يقرأها يا ريفانا، سنتحد جميعاً لتجميع تلك الإشارات، ربما تلهمك بشيء"

قال كنان:

"الجبال السود"

قالت ريفانا محتارة:

"ربما هي الذنوب!"

فيقول سفيان:

"الأشجار!"

فتجيبه سريعاً:

"مكافأة.."

قالت رتيل شاردة:

"مكافأة على ماذا ونحن هنا في منفى، أو أرض هلاك، نحن هنا لنحاسب ونعذب، ليس هناك مكافآت"

فتقول ريفانا:

"لقد عالجت بها أكف كنان"

تصر رتيل على وجهة نظرها

"لقد كانت سبباً في حرجه من الأصل"

ارتسمت الحيرة على وجوههم، فقال سفيان شارداً:

"هناك شيء واحد غريب على هذا المشهد.."

انتبه الجميع إليه، مصغين باهتمام، تسأله ست أزواج من العيون:

"ما هو؟"

فيجيب بذات الشرود:

"الساعة.. لماذا اتحدت كافة عقاربها على رقم واحد؟!"

ابتلع جميعهم ريقهم الذي بالكاد تعلق بحلوقهم، ليهتف كنان بحدة:

"لا.. يستحيل، هل تقصد بأن هناك ناجٍ وحيد من هذه الجزيرة، لا..لا، أنا لا أصدق"

يمسح سفيان وجهه بتعب:

"أنا لم أقل شيئاً، أنا لا أفهم شيئاً، أوشكت على الجنون، أقسم بالله.."

ترعد السماء..

فكررت ريفانا:

"الله"

ليثور البحر ويهتاج

حاول كنان على تكرار النداء إلا أن رتيل وضعت كفها على فمه تمنعه هامسة:

"ربما نحن على جزيرة الشيطان"

فتقول ريفانا وقد علت وتيرة مخاوفها، فقد رأت بعينيها قدرة الشيطان على تزييف الحقائق، والدخول لعقول الناس وإفساد حياتهم، قدرته على التلبيس والتدنيس:

"أعتقد بأن الشيطان ليس في حاجة لنا، لقد فعلنا كل ما طلبه منا"

فقالت بصوت قوي:

"أغثنا يا الله.. أغثنا يا الله، ياا الله"

فاشتد صوت الرعد، وأظلمت السماء، وسقطت الأمطار واشتد السيل..

ركضوا نحو الجبال يبحثون عن مكان يحتموا به من الأمطار، فرأى سفيان فرجة بين الصخور تشبه الكهف، إلا أن الظلام قد عم تماماً، فباتوا لا يرون أكفهم..

لا يسمعون شيئاً سوى صوت سيل المياه، وقوة سقوطها على الأرض، وقوة أنفاسهم التي وصلت إلى حد الهلع..

لا يعلمون هل المطر نذير خير أم شر..

ومن وسط الظلام، أضاءت تلك الفرجة في الكهف لتتسع شيئاً فشيئاً بالنور، وكأن أحداً يدلهم على مكان للنجاة، تبعوا الضوء، ليستقروا داخل الكهف، وبدأ الضوء في الانسحاب ليصل إلى مدخل الكهف، لتظهر داخله صورة ضي.

تلك الصغيرة التي تنازع الموت وهي تُسقط طفله كما أمرها، تخبرها الطبيبة بأنها لا تجهض النساء، وتعطيها ظهرها وتبتسم ابتسامة شيطانية.

فتتوسلها ضي:

"أرجوكِ، هو ابن غير شرعي، لقد تركني والده، وأخبرني بأن أتخلص منه سريعاً ووعدني بالزواج بعدها"

فتجيبها الطبيبة:

"طالما وعدك بالزواج فلماذا يسقط طفله؟"

"هو مشغول، حالما يفرغ سيكون حملي ظهر، أرجوكِ، أرجوكِ"

تتظاهر بالتعاطف معها وتقول:

"هذه مرتي الأولى التي سأفعلها لأجلك، لكن عليكِ إحضار المال لأني بحاجة لمساعدين، أنا لن آخذ شيئاً لنفسي"

تخرج من حقيبتها الأموال التي لطالما لم تشكل عائقًا، فهي مدللة عائلتها، يغدقنها بالمال

"وطلب آخر، لحدوث أي شيء طارئ لابد من إعطائي اسم الأب، ورقم هاتفه، لمحادثته إن حدث لكِ شيء"

كي تتخلص من عبئها فعلت:

"سفيان المنصوري، رقم هاتفه...."

وبعد لحظات من الإعدادات، والتخدير، زهقت روح ضي وهي تسقط جنينها، بينما اقتحم أحدهم المكان، ليتضح من صراخها أنها ممرضة متمرسة، وليست طبيبة، وكانت تلك أول جرائمها.

انخفضت الإضاءة شيئاً فشيئاً..

ليظلم الكهف فجأة، حاجبا صدمتهم فيه، بينما سطور الخزي خطت في قلب أخته، وأبناء خالته..

ظلام وهدوء، إلا من أنفاسها المتلاحقة، وهمسها القاتل:

"أنا السبب، أنا من أعطيتها رقمك يا سفيان أنا السبب، ليتها ما لاحقتك باتصالها، ليت والدها عنفها أو نفاها، أنا السبب في موتها.. أناااا"

....

يترأس الطاولة على يمينه أخته، وعلى يساره كنان ورتيل.
يتطلع كلٌّ منهما إلى صحنه، لا يعجبهم الطعام الذي قام بإعداده خصيصاً لهم..
صوت رتيل العذب يتسلل إلى أذنيه:
"ليتنا طلبنا طعامنا من الخارج"
يرد عليها بسماجة
"وما الفارق بين طعامي وطعامهم، في النهاية مآله إلى المرحاض"
لقد نجح ببراعة في قلب معدتها، فقامت بصخب مغادرة غرفة الطعام.
فقال له كنان:
"هل أحضرتنا إلى هنا، لتسمم لنا الطعام"
قالت ريفانا:
"لا.. سفيان يمزح، رتيل هي التي لا تتحمل سخريته، لقد عزمناكم بعد أن أوصتنا خالتي بكم قبل سفرهم"
يستوقفها سفيان بنزق:
"وكأنهم صغار، غير قادرين على إعالة أنفسهم"
ينظر إلى كنان في عينيه
"اعتبر هذه آخر دعوة أقدمها لكم لحين عودة والديكم من نزهتهما"
ثم غادر الطاولة، تاركاً إياهم مبلمين الوجوه من فظاظته..

"اعذره يا كنان، أخي تغيرت طباعه منذ وفاة أمي، لقد كان يعيش لأجلها، أنت تعلم أنه متعلق بها، يمكن أكثر مني"

يطالعها بدهشة:

"ولماذا يتعلق بها أكثر منكِ؟، في حين أن العكس أقرب للمنطق"

أسبلت جفنيها وقد جافتها رغبتها في الأكل:

"لقد اقترب سفيان منها كثيراً في آخر أيامها، لقد كان يحملها حملاً ليدخلها الحمام، حين امتنعت عن الطعام كي لا تزعجنا بتكرار تنظيفها بعد قضاء حاجتها، فكم كانت كالطفلة بين يديه، وهو يحملها وهي متعلقة بعنقه أماناً وامتناناً"

تذرف دموعاً باردة، فقد مر وقت طويل على موت والدتهم، فقال كنان يهون الأمر عليها:

"لقد تركت في نفوسنا جميعاً الأثر يا ريفانا، رحمها الله، أمي لا تتوقف عن التفكير بها والدعاء لها، لا تنسي أنها أختها الصغرى، أمي كانت بحال يرثى لها مما استدعى والدي على السفر بها، ربما تغيير الأجواء يساعدها على النسيان"

يتناول ملعقة من الحساء بشرود ويكمل:

"ولو أني أشك بذلك، فأمكِ ورقتها واهتمامها بمن حولها لا يُنسى على كل حال"

تومئ برأسها بحزن مؤكدة على كلماته، يضع ملعقته وقد أنهى طعامه، فتقوم لتلملم الأطباق، ليساعدها في تنظيف الطاولة.

وفي غرفة الجلوس سكنت تتطلع إلى عينيه التي حفرت بشدة في وجهه، أصبحت ميتة، وجهه الذي نحل كثيراً عن ذي قبل، وجسده الذي كف عن الامتلاء، فتوقف عند حد النحافة..

"لا، لا يمكنني الزواج منك يا سفيان، وأنت تعلم السبب"

يرفع حاجبيه بسخرية

"أخبريني ما هو، ربما ما أفكر فيه خطأ"

لم تجاريه يوماً في كلماته، رغم إفسادها لجميع زيجاته قبل أن تتم، إلا أنها لا تريد أن تتزوج منه.

دوماً ما تتساءل عن السبب، هل تحقد عليه، أم تثأر لبني جنسها، وحتى الآن لم تصل لجواب.

"لا يهم ما تفكر فيه يا سفيان، المهم أني لا أوافق عليك زوجاً، ولا أستأمنك علي، ولا أشعر بالانتماء لك، ولا يجمعنا قبول"

قامت لتهرب من عينيه، يحزنها حاله، لكن أبداً لم يكن الحزن سبباً للزواج.

تتأمل المنظر الرائع أمامهم..

المنزل بالقرب من منزل كنان الحديث الذي اشتراه بأموال طائلة لا تعلم مصدرها، إلا أنها تثق بأخيها، فهو لا يميل إلى الأعمال غير المشروعة...

منزل كبير، يطل على مساحة شاسعة من الخضار، به حمام للسباحة، يشرع في تشطيبه كما يرغب، فيؤجل انتقاله إليه..

صرخات من ناحية المطبخ، جعلتها تلتفت لتلتقي عيونهما في هلع؛ فيركضان سوياً نحو المطبخ.. ليجدا كنان متسطحاً أرضاً، وريفانا منحنية فوقه، تحاول معه ليفتح عينيه.. بلا فائدة.

....

يستقيم من نومه الذي هاجمه عنوة، وعندما عدل من وضعيته، وجدهم جميعهم نيام، ينبثق ضوء النهار من فتحة الكهف، فقام لينظر خارجه، فوجد كل شيء على حاله، الأشجار لازالت هناك، يفكر في الوقت الذي سيتذوق فيه حبات التمر، وثمار التين..

غير قادر على الوقوف من شدة الجوع، سيأكل أوراق الأشجار إن احتدم الأمر، غير قادر على الحراك..

يقترب من مياة البحر، يمد رأسه إليها يشرب منه، غير عابئ بما سيصيبه..

"سفيان"

كان صراخها باسمه ما منعه من ارتشاف المزيد من المياه، فيلتفت نحوها، بعينين متورمتين من بكاء أمس.. تركها تبكي حتى نامت، أو ربما صمتت فهو لم يكن يرى أي شيء..

كاد قلبه أن يتمزق، ليس عليها فقط، وإنما على ضي.. ابنه، على ما جنت يداه واكتسبته..

إنه لم يكن سبباً في قتل نفس واحدة، بل اثنان..

يرى شيئاً يتحرك في المياه.. يحاول مسكه، لقد بحثوا طويلاً عن شيءٍ يؤكل فيه ولم يجدوا من قبل..

أمسك السمكة التي تجري أمامه، فشعر برعدة كهربائية تصعقه، يصرخ منتفضاً متراجعاً إلى الخلف

"آه"

تجري نحوه بلهفة لا تعلم ما الذي أصابه:

"هل أنت بخير"

يمسك كفه المصعوقة بقوة، يتفحصها، يجدها بخير.. يقف وقد ابتل ما يستر خصره..

"نعم، بخير.."

تنظر حولها لتجد الهلال بشفافيته البيضاء في وضح النهار

"يبدو أن الكون عاد لطبيعته"

ينظر حيث تنظر، يوافقها الرأي..

يطيل النظر حوله ويقول

"وبما أن الجوع سنة كونية، علينا التصرف لنأكل، اتبعيني"

سارت خلفه، تقترب من الأشجار..

يشير إلى إحدى الفروع الضعيفة ويقول..

سأحملكِ فوق أكتافي يا رتيل وتتعلقين بهذا الفرع بما تملكين من قوة، حاولي أن تقتلعيه"

تجيبه وقد حفز الجوع خلاياها لتصنع أي شيء لتأكل، يجلس على ركبتيه يحني رأسه لأجلها، تلف ساقيها حول رقبته فيستقيم بها، يتوجه نحو طرف الفرع

"هيا، تعلقي به"

تحاول فلا تطول، يرتفع قليلاً بها، ولا تستطيع..

ترفع ذراعيها أقصاهما، بقي القليل، قفزة بسيطة عن كتفه مكنتها من مسكه فمال إليها، تجذبه أكثر فلا يحدث شيء سوى ميله..

فقال:

"سأفلتك ليحمل ثقل جسدك وتقتلعيه"

صرخت به:

"لا.. لا، سأسقط.."

قال بصوتٍ جادٍ:

"ثقي بي.."

أفلتها، فانكسر الفرع من منبته، وكان التقاطه لجسدها بالأمر اليسير ليفعل..

يحاوطها بذراعيه بصلابة، تنظر إلى عينيه المتعبة..

يتعجب من قوته في حملها في حين كان يشكو ضعفه منذ قليل في الحركة..

ينزلها أرضاً وهي تنهت من فرط ما قامت به..

فرتيل لا تفعل شيئاً في حياتها سوى مشاهدة الهاتف والوقيعة بين أصدقائها..

يلتقط الفرع الخشبي من الأرض، يحمد الله على سهولة تقشيره ليصبح مسنناً.

يقترب من البحر، يراقب المياه، لا يجد شيئاً، وكأنه توهم منذ قليل وجود إحداها.

"هناك"

كان صوتها وإشارتها ما دفعوه ليصوب الخشبة الحادة نحو السمكة التي فلتت من رمحه الرديء.. فتبعها، ليفشل.. وتبعها مجدداً ليظفر بها..

انتظر قليلاً حتى وجد أخرى، وأخرى..

توقف عندما شعر بالتعب:

"كيف وصلتِ إلى ضي وأعطيتها رقمي"

تتسمر في مكانها، وقد أنستها مغامرة اليوم، برثاء الأمس

"أولاد الحلال كثيرون يا سفيان، وأنت محبينك كثر"

تراقب الأسماك في المياه، وتقول بحدة:

"لماذا أجبرتها على إجهاض جنينها؟"

توقف عن الصيد، بروح منهكة جلس على الرمال:

"كيف أنجب من فتاة فرطت في شرفها لأجلي؟!"

"لقد قلتها بنفسك، لأجلك، أنت من ضحكت على عقلها وزينت لها الأمر، أنت أب هذا الطفل"

يلتفت إليها بحدة:

"لماذا عليَّ أن أصدق هذا، حقاً أنا الأول في حياتها، لكن ما أدراني بأن الطفل لي يا رتيل؟"

"لهذا تريد الزواج على الطريقة التقليدية، لهذا تريد أن تتزوجني، مهما حملت من ذنوب يكفيني بأني لست عاهرة!"

يقف يقترب منها يضع كفه على شفتيها

"إياكِ وهذا اللفظ مجدداً يا رتيل، أنتِ أبعد ما يكون عن العهر حبيبتي، أنتِ نقية"

"أمشي بين الناس بالوقيعة، أحسد هذه وتلك، ليس لي أصدقاء، غير قادرة على التعامل مع أحد، أخرب البيوت أفسد الزيجات.."

تردف بسخرية:

"لكني لا.. لست عاهرة"

وأي عهر يوسم النفس أقسى من ذلك، هل العهر بالأجساد فقط، أم النفوس كذلك!

التعري من الأخلاق وخلع ثوب الإيمان ليس بالعهر!

تغمرها الدموع، ويتشقق قلبها من شحتفات زلاتها..

ينظر إليها يحسدها على تلك الدموع التي تريح القلب وترطبه ليس كقلبه القاسي.

يراقب خروج كنان من الكهف..

يدعوه لاستكمال عمله بإشعال النيران، وإنضاج الأسماك.

الفصل الرابع

عندما جاء الليل بأستاره المظلمة، كان كنان قد نجح في إشعال النيران، وطهى الثلاث سمكات، وأضاء المكان..

شعروا لوهلة بأنهم في رحلة سفاري للمتعة، وليست رحلة مجهولة المغزى..

اجتمعوا حول الطعام والنيران وقد شعروا بالبرد، وكأن فصول السنة تعاد عليهم كل يوم بفصل مختلف.

يشعر كنان بالطمأنينة لأنه المتبقي بينهم لم يفضح ذنبه، يقارن في نفسه أفعالهم، فيرى أنه بلا ذنب، لا يكترث إن فُتحت تلك الفوهة من ماضيهم من الأشجار أو الكهف أو الرمال، لا يهتم.. يقول بهدوء عكسه تفكيره

"لقد علمت سبب نفينا لهذه الجزيرة"

تطلع إليه جميعهم، ينتظرون التفسير العلمي الهادئ المنتظر.

"إنها الآثام التي اقترفتموها على سطح الأرض فكانت سبباً في لعنتنا على هذه الجزيرة"

قالت ريفانا، تطالعه بغضب وليد:

"ولماذا لا تضع نفسك بيننا يا كنان في حديثك، وكأن ما تفعله لا يعد ذنباً!"

اتسعت عيناه في إشارة منها أن تصمت، فلم يفلح وهي تقول:

"أنت مُرابٍ، مقامر، تستحل أموال الفقراء، تقرضهم وتسترد منهم بزيادة، سهراتك الليلية لكسب المال بالمقامرة، هذا لا يعد ذنباً؟!!"

ساحرة، حقاً ريفانا ساحرة، سخرت الجن لها لتعرف أشياء لا يجب عليها معرفتها، لكن لماذا لم تنبش خلف أخيها سفيان، أو حتى رتيل أخته..

لماذا هو بالذات!

يجيب بصوت خشن أغبر:

"هل تقارنين سحركِ.."

ثم يلتفت بنظره نحو سفيان ويكمل:

"والزنى وقتل النفس.."

وينظر بتعاطف نحو أخته مستطرداً:

"كالحسد، ومساعدة الناس، أنتم السبب أنتِ وأخيكِ فيما نحن فيه، أقسم على ذلك"

تقول رتيل بتعقل

"ولماذا نحن بالذات معهم يا كنان؟"

تترقرق الدموع بعينيها فتبدو براقة مع اشتعال النيران

"أنا لا أحسد فقط، أنا أمشي بالوقيعة بين الناس، لا أرتاح إلا وأنا أرى الفرقة رفيقة علاقتهم.. أنا.."

تغطي وجهها بكفيها بينما سفيان يُظهر تعاطفه معها، يربت على كتفها يهدِئها دون كلمات.. وماذا سيقول، هل سيعترف لنفسه بأنها السبب في موت ضي وابنه..

هل اعترف الآن بأنه ابنه هو، يجزم على حب ضي له، ويجزم بأنه رغم دلالها وحريتها أنها لم تقع في حب أحد إلا هو.. قال:

"أنا زانٍ، تسببت في مقتل روحين.. ضحكت على الكثير من الفتيات، ليست ضي فقط"

لمعة خافتة مرت فوق بياض عينيه بتأثر

"فعلت ذلك ولم أهتمِمْ لرد الفعل لي ربما في أختي، لكني أقسم بأني لم ألمس امرأة منذ وفاة أمي، حتى تحدثت إليّ ضي، وطلبت منها ما طلبت"

يضغط على أسنانه مرتبكاً، والنظرات إليه مترددة، والجميع مدان، لا أحد يستطيع تبرير فعلته، ولا التخفيف عنه، ليردف:

"أعترف بأني أكثركم ذنوباً ربما، أجزم بأنكم هنا بسببي أنا، لذنبي أنا، لعدم تعقلي، لرعونة أفعالي وتصرفاتي الخاطئة، لم أنتبه أن لي أختاً، ولها سمعة، ربما عاقبني الله فيها، إلا أني زللت، ومشيت الطريق حتى آخره"

يقف، يوليهم ظهره، يكسو وجهه علامات الغضب من نفسه، والسخط على ما تسبب فيه.

تقف ريفانا، وتتقدم نحو أخيها وخلدها لا يتوقف عن التفكير، الآن الجميع يعتقد بأنه السبب في وجودهم هنا، وليست الوحيدة في ذلك

"ربما بسببي أنا يا سفيان، ربما أنا يا أخي، لقد سخرت لي أحداً من الجن ليطيعني"

التفت إليها يحاوطها بذراعيه:

"لا، لقد كنتِ تفعلين الصواب، تصلحين ما أفسده العالم"

"بل ضاهيت الله بقوتي وبما أملك، نسيت أن الله على كل شيء قدير، وأنه هو المتصرف الوحيد في الكون، مالي أنا وزواج تلك، وإنجاب هذه، مالي ومال الأرزاق والإنفاق، لقد أُنهكت يا أخي أنهكت، لقد ظننت أني أفعل الخير لكني.. أنا"

يهزها برفق":

"أكملي، أنتِ ماذا يا ريفانا، ماذا؟"

"كي تسخر أحداً من الجن، عليك أن تكفر بالله أولاً، وتؤمن بأن الجن في يده كل شيء، هو القادر على تغيير كل شيء.."

اتسعت عيناه!! يتركها، يبتعد عنها بعدة خطوات إلى الخلف، يترك كنان ما في يده، ويقف ببطء مشدوهاً مما تقول ابنة خالته، بينما رتيل لازالت على وضعها، تستمع وتبكي، تبكي بشدة..

بقوة تناسب ما سمعت، فتوقفت ريفانا عن الحديث، لقد مثلتْ كثيراً على الناس وعلى نفسها بأنها لا تفعل شيئاً سيئاً، أنها تساعد الناس، إلا أنها الوحيدة التي تعلم حقيقة قلبها، وكلما حاولت التراجع، يبدأ الجن في أذيتها، وهل هناك أكثر من زهق روح أمها كعقاب لها..

يصرخ بهم كنان:

"أنتم شياطين، شياطين، أنتِ السبب في موت خالتي يا ريفانا، هل هذا صحيح؟"

وعند هذه الكلمات، جثت بركبتيها على الرمال، بملامح جامدة، دموع تجتاح مقلتيها، تسيل على وجنتيها، جامدة التعابير بدموع كالأنهار، يقف أمامها سفيان الذي بدأ في الانهيار

"لقد حاولت التمرد فقط، رفضت بأن أكمل الطريق، رفضت خضوعي له وحاولت العودة، فآذاني بها، ماتت من كانت سندي في تلك الحياة، من كانت تحمل همي، أحضانها التي لطالما اختبأتُ بها وحملت عني تعبي"

يسقط سفيان أرضاً، يمدد قدميه أمامه غير قادر على الحراك، يتبعها بنظره فبات ممداً بجسده كالأموات، ينظر إلى السماء، وأنفاسه تتسارع، يقام رغبة شديدة في البكاء، رغبة لطالما أوقفها ليبدو قوياً أمامها فلا تنهار بالمثل..

وماذا لو كان من امتنعنا عن انهيارنا أمامه، هو السبب في موت روحنا الآن.

لقد كان يحميها!

كالتمثال يوم موت أمه كي لا تسقط هي.. كي لا تصارع هي، كي لا تظن بأن أخيها كالنساء وليس قوي لحمل روحها بعد موت أمه..!

أرهق نفسه في العمل، وأشقى نفسه لتلبية طلباتها، يهدهد ليلاً، ويلاطف نهاراً، لا يمنحها الوقت لتحزن، فتكون هي سبب موته الآن.

كلٌّ في مكانه، أربعة تماثيل بلا حياة تكسوها، أحدهم في وضع الميت، والآخر مصدوم، بينما رتيل تبكي ويديها فوق وجهها، والأخرى متصلبة الجسد.. دموعها كالنهر..

تخفت ضوء النيران التي كان إشعالها ليس بالشيء الهين..

حتى تنطفئ ويعم الظلام مجدداً.

....

يوم جديد تسطع عليه الشمس فبدؤوا في حساب الأيام، المهام الموزعة عليهم تتم برتابة، ليس لديهم مورد للطعام سوى الأسماك، التي قد يمر يومين بدون أن يلمحوا ولو سمكة واحدة، هم بحاجة لمصدر آخر للطعام.

ينتظرون مياه الأمطار لتشبع جوفهم بمياه نقية نظيفة، ينامون داخل الكهف..

والحديث بينهم شبه منقطع، حتى بين الأخوة وبعضهم البعض.

خرج كنان يحمل الرمح المدبب للصيد..

فوجدها بالخارج، تجلس بين الأشجار، تعبث في الأوراق التي تسقط منها باستمرار.

يقول بسخرية وهو يتابع الأسماك بدقة، عله يظفر بالإفطار اليوم

"ابحثي لنا عن تعويذة للعودة يا ريفانا، أو نادي على جنيكِ الخاص ليحملنا عبر الزمن ويعيدنا"

لم تُجِبه، تسبح بخيالها وقد بدأت بالاستسلام لواقعها المرير على تلك الأرض.

تراه يعافر، يضرب المياه بقدمه ورمحه للصيد، ولا يحصل على شيء.

تصعقه سمكة؛ فيسقط فوق الرمال على ظهره، فتضحك بشدة.

يلتفت إليها بغضب يصيح فيها:

"هل هذه إحدى ألاعيبك؟"

ترفع صوتها ليسمعها:

"اطمئن يا كنان، لقد توقفت جميع ألاعيبي على سطح تلك الجزيرة"

يزحف إليها، ولا زالت قدمه مخدرة بفعل صاعقة تلك السمكة، يقول بحذر "هل جربتِ إحداها هنا؟"

تومئ برأسها وتقول:

"وسقطت في ظلمة لم أحسب مدتها لأستيقظ وأجد سفيان قد عاد إلى الجزيرة"

يبتسم وكأن النجاة قد أتت:

"حسناً، لنجرب واحدة أخرى بما أن سفيان قد عاد بواحدة، ربما نعود إلى منازلنا بواحدة أخرى، هيا جربي"

"وربما مت وأنا ألقيها، فماذا ستستفيد أنت وقتها!"

يعدل جسده ليستند إلى الشجرة المقابلة لها

"لا.. لا تتحدثي هكذا يا ريفانا، ستعيشين، أنتِ ستعيشين وقتاً طويلاً"

يهتز شعرها الأسود بفعل الهواء ليلامس وجنتيها، رغم الفوضى التي تعمهم، إلا أنها لا زالت جميلة كما الصغر.

تنظر إلى عمق عينيه، فيقول مسحوراً:

"كيف عرفتِ أني مرابٍ مقامر كما وصفتني من قبل؟"

"أظن أن إجابة هذا السؤال محسومة يا كنان"

"لماذا لم تسألي خادمكِ عن أخيكِ، أو رتيل؟"

تخفض بصرها عنه، بماذا ستخبره الآن، أنها تحبه هذا الغبي البراجماتي الذي لا يحمل في قفصه قلب، ما يهتم لأجله المال..

دراسته في شعبة التجارة رسخت في عقله حب الأرقام، وجعلت منه مادياً لا يعترف بمشاعر، جامد لا يهتم إلا بالنتائج التي يحددها مسبقاً.

هي تحبه منذ أن نمت داخلها مشاعر أنثوية تحثها على الإعجاب، تلك المشاعر التي يخفق القلب فيها فلا يرى أو يسمع سوى من يحب.

كان أقصى طموحاتها أن يراها، فقط يراها وهي الحيوية والنعومة في عالمه الذي لا يرى سوى الأرقام.. فلم تستطِع النفاذ لعالمه، وهو لم يستطِع رؤيتها وهي التي تناقضه.

"لأني أهتم لأمرك أنت"

هل يعقل ما يسمعه، جميلة جميلات العائلة تهتم لأمره هو، كل ما يفعله من جمع المال لأجلها هي، عله يكون في مكانة والدها، أو يستطيع أن يوازن ثراءَها، فلا يقل في نظرها، يبحث عن طرق الربح والكسب السريع لأجلها هي وكان يظن بأنه يوم يقترب، سترفضه وتستصغره.

"حقاً يا ريفانا تهتمين لأمري؟"

كقط صغير دغدغ أحدهم ظهره فلان صوته، ورقت ملامحه، تتعجب من رؤيته هكذا، وهو الجامد الذي ظنته كالصخر!!.

"كثيراً، جداً.. جداً يا كنان، أتذكر ذلك اليوم الذي سقطت فيه تعاني من تسمم معدتك، لم يكن بسبب سوء طعام سفيان يومها، بل.. كان خادمي من آذاك"

كيف لمشاعر الحب والخوف أن يجتمعا في آنٍ واحد!
تناقض يضرب قلبه من عينيها العسلية التي يطمئن ويهلع منها!
يقترب ليجلس بجوارها، يصمت وهو يرى أنه الأصوب بعد ما سمع، فكلماتها لا يرد عليها سوى بالصمت.

....

يستند بكوعه على أحجار الكهف من الداخل، يمسح ذقنه بأصابعه، يتابع اجتماعهم من مكانه.

يستمع لأناتها وهي تتململ لتستيقظ من نومها، يلتفت إليها، يحمل رمحه، ويغادر الكهف.

تفرك عينيها، تتثائب بملل، فلا ينتظرها سوى الكآبة التي تصارعها كل يوم، منذ مصارحتهم جميعاً سابقاً.

تقف، تهم بالخروج، تقترب حيث المياه لتسقط بجسدها فيها، لتجلس بعدها في حرارة الشمس حتى تجف، تقوم بهذا الفعل يومياً، لتهدأ أفكارها التي لن تهدأ إلا وهي صريعة.

تخلل أصابعها بين شعرها في محاولة لفض تشابكه، تنثر المياه عنه بقوة، وكأنها بذلك تنفض أفكارها عنها، وكرهها للجميع، ولذاتها أولهم.

يقترب منها سفيان يمنحها نصيبها من السمك، تتناوله بصمت، فيتجرأ على الجلوس بجوارها..

تطحن أوراق الريحان بأصابعها، وتأخذ رائحته الشحيحة وتضعها حول عنقها، لينبعث من جلدها رائحة منعشة..

يشمها بولهٍ، وقربها يثير حواسه..

يجلسان على صخور الكهف، الشمس حارة، تكاد تحرقه، بينما هي تستمتع بلسعتها فوق ثيابها لتجففها.

يلصق ساقه بساقها، فتتأجج به مشاعر لا يفهمها، ولا تكون إلا معها..

ليست ككافة النساء من يحركه نحوهم شهوة، ومغامرة..
هي التي تحرك مشاعر الحب والاحتياج داخله، يحتاج أن تكون له، أن يحيا بها..
هي من تجعل أنفاسه تتسارع شوقاً، يطلبها للزواج ثقة بها، يرغبها أن تكون جواره طوال الحياة.
"هل يمكنكِ منحي فرصة للاقتراب يا رتيل؟ "
تستعير من الهواء أنفاسه، فتعبّ منه لتملأ صدرها.
"لا"
تبعد ساقها عنه، تتناول طعامها في صمت، فيستمع لصوت دغدغة أسنانها للطعام وهي تلوكه، وكانت تلك الفعلة مذيبة له برقتها المتناهية.
يتعجب من إفسادها العلاقات، الأمر يتطلب قوةً.. لا.. بل خبثاً.
"أريد أن .."
"ابتعد عني يا سفيان، لا تقترب، لا تطلب، لا تطمح في منحي لك أي شيء، أنا لم أسامحك، ولم أسامح نفسي"
"أقسم بأنكِ ستكونين الأولى والأخيرة، أقسم بأني تبت، وندمت على ما فعلت، فقط اقبليني زوجاً لكِ يا رتيل، وسأجعلكِ تتأكدين بنفسكِ كل يوم من زواجنا من إخلاصي وحبي لكِ، لن أستميل فتاة أخرى، لن أضع بذرتي داخل إحداهن مجدداً، لن أقرب الزنى ولن يرتفع بصري نحوهن، أقسم لكِ"

تستشعر الحماس في صوته، والجدية في حديثه، وصدق عينيه:

"أحسدك على صدقك، وعزمك، وقوة رجوعك يا سفيان، المشكلة ليست فيك، بل في قدرتي على المسامحة، قدرتي على التوبة مثلك، طيفها يلازمني، طفلك يمثِّلُ بقلبي فيسلخه، أنت لا تحمل الذنب وحدك، أنا أيضاً قتلت نفسين.. روحين.."

تسقط دموعها مجدداً، يأسها من عودتها عن طريقها وقنوطها من التوبة يمزقه.

"فلنعقد اتفاقاً إذاً، أنا تُبتُ وأحتاج من يعينني على إكمال طريقي، أنا أحتاجك زوجة، وأنتِ تحتاجين لمن يدعمكِ حتى تعودين، أو تتقبلين نفسكِ وأنا سأفعل، سأفعل كل ما هو غوث وعون لكِ، لن أتركِكِ في جلد الذات والله غفور رحيم، اعترفي أولاً بذنبكِ يا رتيل، اجعلي تلك الدموع أملاً وليس يأساً، ندماً وليس قنوطاً، اتركيني أساعدكِ حبيبتي أرجوكِ"

تصرخ به:

"كيف، كيف سنتزوج هنا، أين المأذون، الشهود، أنت تريد إخماد شهوتك بلا ميثاق يجمعنا"

ترددت مقلتيه بداخل عينه، يعكس صدق حديثها، لا يعرف كيف سيحصل عليها هنا، إلا إذا كان كما يفعل مع تلك الفتيات سابقاً.

لا، أبداً هو لن يزني بها!

هو لن يفعل!

يبتعد عنها وكلماتها أصابته بالإحباط، فبات قربها منه لهيباً يؤجج قلبه، وكذلك بعدها عنه.

....

عند خلودهم للنوم ليلاً، سمعوا صوت خارج الكهف، وكأنه حصان يركض سريعاً، ثم يتوقف.

خطوات رتيبة فوق الرمال مكتومة.

ركضوا أربعتهم إلى الخارج، يحمل كنان شعلة النار، قادتهم أقدامهم نحو الأشجار، ليفاجَأوا بكومة كبيرة من البلح الأحمر، ملتفة حول النخلة وكأنها سقطت للتو.

هل يعقل بأنهم أخيراً سيأكلون، بعد يوم طويل من البحث عن الأسماك حتى جفت حلوقهم.

انهالوا جميعاً على حبات البلح، يلتهمون منه حتى شبعت بطونهم.

لم ينظر أحدهم إلى الآخر، وهم يأكلون وقد التهى كلٌّ بنفسه.

سقط كنان نائماً فوق كومة البلح، ممتلئ المعدة، يشعر بسعادة غامرة فيضحك عالياً يردد:

"حمداً لله، حمداً لله"

يمسك عدة حبات بكفه، يرفعها عالياً لتسقط فوق رؤوسهم

"لدينا ما يكفي من الطعام حتى نغادر هذه الجزيرة"

يقذفه سفيان ببضعة حبات

"سنصبح أغنى تجار البلح في العالم"

فتضحك ريفانا عالياً، وكأنها سكرت من حلاوته:

"بل أفضل أنواع البلح سنتصدر صناعة التمور في العالم"

بينما رتيل صامتة، فهي لم تفرح بالظاهر، فعلى هذه الجزيرة، يوم تملك الدنيا وما فيها..

ويوم تسحب منك النعم لتتركك على أرض جرداء.

....

"لا أقلل من ذنبي كما تدعون، وإنما أعرفه، وأعلمه جيداً، هل أخبركم بأنه من الكبائر، الربا، هي لعنة لزيادة المال، كنت أقوم بكافة أنواعه، الفضل والنسيئة.....، فلم أترك ثغرةً إلا وعبرتها بالإضافة إلى أني لاعب قمار متمرس"

يستمعون إليه في جلسة اعتادوها ليلاً حول النيران.

"لماذا أنت الوحيد الذي لم تفتح طاقة لنرى ماضيك يا كنان"

كان سؤال سفيان له، فأجابه:

"ربما لأن أختك كانت تعلم به، من خادمها"

تلمع عينيه ويقول بحذر:

"لا تنكروا بأن جمع الأموال رغبة عند الجميع، وسرعة زيادتها مطمع وشره لا يمكن مقاومته، لقد كنت أشفق على من أزيد عليهم المال لكني اعتدته كعمل، ومن هذا المنطلق لا شفقة في العمل"

تعبث ريفانا في الرمال تحتها، تصغي إليه...

"لن أخبركم بأني نادم على سنوات عمري التي قضيتها لجعل الجميع يكرهني، ولا نادم على ركضي خلف المال، إنما ندمي الحقيقي هو أن هذه الأموال لن تنفعني الآن، ولن تخرجني من هذا المأزق، لو خيرت بين أموالي وحياة أحدكم لاخترتكم عنها، أقسم بأني لن أعود للمراباة من جديد، لن أكسر الهامات والنفوس المحتاجة للمال، لن أقامر وأكسب أموالاً لا

قيمة لها أمام المبادئ والدين، أقسم وأريدكم شهوداً تردني إن زللت، بأن المال سيكون وسيلة للعيش القويم وليست غايتي"

لم يستمع لتصفيق، ولا هتاف باسمة، بل سمع صوت أشياء جديدة ترتطم بالأرض، تشبه السيول القوية، ليلتفتوا معاً نحو الأشجار، ويتوجهوا نحوها.

إذا بشجرة التين تلفظ ثمارها أرضاً..

فيتمثل كومة كبيرة جوار كومة البلح، لينظروا إلى بعضهم البعض بانشداه، بحلوق مفغرة..

متسائلين عن سبب هذا الغوث الكبير

....

كانت النجوم أول أحلامهم، تلاها القمر والغيوم، كهف يحتمون به، نيران وطعام.

بعد أن كان المكان يثير مخاوفهم، بات يبثهم الاطمئنان، كنان على مشارف الانتهاء من تقسيم حصةِ كلٍّ منهم على حِدة، ولكلٍّ حريته الكاملة في الاستهلاك كيفما شاء، فلا يطغى على حق غيره.

يصف حبات البلح بين كلّ حصة ومثيلتها كخطٍ فاصلٍ، ويكون ضمن الكمية السابقة هذا الخط.

ساعده سفيان في التقسيم، ورتيل تصف الخط الفاصل، بينما ريفانا تتناول جزءاً من حصتها تتابع أعمالهم بجد، وتنتظر تعب رتيل لتبدل معها.

تلوك البلح بفمها، وتقول:

"لقد أصبح هذا هو مورد طعامنا بعد أن اختفت الأسماك تماماً من الجزيرة، أتعلمون شيئاً"

لم يلتفت إليها أحد والكل منهمك في عمله

"ما تقومون به ويهلككم، كان لخادمي أن يصنعه بين طرفة عين وانتباهتها"

التفت إليها كنان، يقترب منها متسائلاً:

"هل تفخرين بما كنتِ ريفانا، ألستِ نادمة على ما فعلتِ، لماذا لا تظهرين طلبكِ للغفران، أو توبتكِ أمام الجميع، هل لازلتِ تحت تأثير خادمكِ الذي يمنعكِ"

توقفت عن الطعام، وقد استثار حديثه مخاوفها.

"هل تظن بأن لي توبة، وهل بعد الكفر ذنب؟"

تستمع رتيل إليها، تعاني مثلها، غير قادرة على مسامحة نفسها، لا تلتمس لنفسها عذراً فيما حدث لضي، لقد تجاوز سفيان ألمه العظيم بينما هي لا.

تقول ريفانا وقد أسقطت حبات البلح من كفها، وهي تتذكر يوم حاولت إلقاء تعويذة لتستعيد حياتها فأوشكت على الهلاك، يلتقط ما تفكر فيه من عينيها يقول:

"لا تحاولي استدعائه، أو إلقاء تعاويذ، فقط اعلمي خطأكِ يا ريفانا وتخلصي منه، ليس بعد الكفر ذنب، لكن الله غفور رحيم"

يتعجب من ذكره لله بينما توقفت الجزيرة عن ثورتها الفائتة، لماذا لم تسِل الأمطار، أو ترعد السماء وتلمع بالبرق؟؟

يلتقط أنفاسه، ولا يزال تفسير ما يحدث من أصعب المسائل غير القادر على حلها، ليس هناك ثوابت.

أشجار تنمو قبل أوانها، أسماك صاعقة، نهار دائم، بحر يرتفع، وأرض تنشق ليخرج منها الجبال.

يراها تزوي بعيداً عن أنظارهم، ولازالت الأفكار تقتحم عقله، ما دلالة الساعة، الرقم واحد.. واحد..

يجلس فوق حصته من التمر يلتهم منها وهو يفكر، بينما رتيل تراقب ريفانا من بعيد، لا تغفل عنها.

تراها تغسل وجهها من المياه أمامها..

لكن لم تستمع إلى حديثها، حديث خافت، هامس، ليست تعويذة، وإنما دعاء.

ينتفض داخلها ليخرج صوتها مرتعداً متقطعاً:

"يا رب، أشهدُ أن لا إلٰه إلا أنت، وأشهدُ أن محمداً عبدك ورسولك، أنت القوي المتين، لا يضاهيك قوة، يا من رفعت السماء بلا عمد، يا من رزقت الطير، يا من ترى النمل في الظلام، يا عظيم، أستغفرك وأتوب إليك، ظننت بأني قد أرزق وأعطي وأمنع، وأنا خلق كسائر خلقك يموت ويفنى، يتعب ويمرض، ينام وينسى، يا من لا تأخذك سنة ولا نوم"

تزداد في الارتجاف، تشهق وقد أخرجت كل ما تحمل، وقالت ما شفى قلبها، فتستزيد من شفائه وهي تقول:

"أنت تحيي وتميت، موت أمي بقدرك، حياة كنان بيدك وحدك، أنت الحافظ، اللّٰهُمَّ أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس دونك شيء، اغفر لي، اغفر لي، يااارب، اغفر لي"

توقفت دعواتها وتوسلاتها مع صوتٍ قوي من المياه أمامها، وسيل من الأسماك تقذف على الرمال، لازالت تتحرك، فهم سفيان وكنان في جمعهم سريعاً، غير منتبهين للتي سجدت شكراً لله أن تقبلها، ومن غيرها يفهم تلك الإشارات.

تلتفت إلى رتيل التي كانت تراقب من بعيد، تركض نحوها وهي تصرخ من بين دموعها:

"سيقبلكِ، لن يردكِ خائبة، لقد قبلني يا رتيل قبلني"

تشدد من عناقها، تسيل دموع رتيل على ظهر ريفانا من غزارتها، تنتفضان سوياً، تردد رتيل هي الأخرى:

"لن أعود يا رب، لن أعود لما كنت سابقاً، أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله"

ويحتار كنان وسفيان من دفقة أخرى من الأسماك مختلفة الألوان والأنواع، فيض من الأسماك سيظلون يجمعون فيه طيلة الليل وحتى الصباح.

****

الفصل الخامس

تستيقظ باكراً قبل الجميع، لا تظن بأن شقيقها وكنان قد يستيقظون مبكراً بعد عنائهم في جمع الأسماك حتى الشروق.

تتسلل إلى الخارج، تسير خلف الجبال في منطقة لم تطأها أقدامهم من قبل.

تنغمس في الماء حتى غطى جسدها بالكامل، وبدأت في خلع ثيابها، تغسلها جيداً، وتتذكر كيف نامت هانئة البال بالأمس، بعد أن تابت إلى ربها وعادت نادمة.

كيف وقد رأت أمام عينيها قبول الله لتوبة ريفانا التي هي أكثر ذنوباً منها، تؤنب نفسها على تأخر هذه الخطوة منذ وقت طويل.

مهلاً، إنهم ليسوا هنا للهلاك أو التعذيب، إنما للتهذيب والتوبة.

تعصر كنزتها وتقذفها بقوة نحو الجبل أمامها لتصطدم به، نعم هم هنا للتمحيص ربما، لو كانت جزيرة للشيطان لما أغدقهم بالنعم، الشيطان لا يفعل، هو ينزع النعم والإيمان ويزين المعاصي، لكنه ليس بيده الخير أبداً.

تستر جسدها بالقليل حتى تفرد الباقي يجف.

تطحن الريحان أسنانها لتعطر جسدها بأوراقه..

تجلس تتأمل المياه أمامها، تنتظر ثيابها تجف، تبعثر شعرها كعادتها تنثر عنه المياه.

حسناً، ربما القصة الشهيرة عن الأشخاص الذين حُبسوا في الكهف، وانفرج بابه بذكر كل واحد منهم عمل صالح، حتى انتهى آخرهم وفتح الكهف على مصراعيه وخرجوا.

تهز رأسها باستحسان، ترتدي ثيابها التي جفت مع مضي الوقت وهي تفكر، تستحسن رائحتها الحلوة من ثيابها، تتقدم نحو ريفانا الغارقة في نومها داخل الكهف تهزها، ليتململ سفيان، ويتبعه كنان.

لحظات واجتمعوا بالخارج تقص عليهم رتيل استنتاجها:

"ماذا لو جئنا هذه الجزيرة لنمحص، لنتوب، ليتخلص كلٌّ منا من ذنوبه التي عظمت فابتلعه، ماذا لو كنا كأصحاب الكهف إن قص أحدنا عمل صالح ابتغى به وجه الله، ربما عدنا إلى منازلنا"

يشعر سفيان بحرارة سحيقة تغمر جسده منذ استيقظ، يتذكر المرة الأولى التي فتح عينيه فوق تلك الجزيرة، تربطه حبال غليظة لا يستطيع أن يتحرك منها، هذه التكتيفة التي قيدته كالأغلال، شعر معها بالعجز كما لم يشعر من قبل لتفتح له نافذة يرى من خلالها رتيل، لم يهدأ وقتها إلا والبحر يهتاج ويسحبه فيذهب إلى أحضانه بامتنان رغبة في تسكين تيهه، ينثر حبات العرق التي ملأت وجهه فيقول:

"عذراً، امنحاني بعض الوقت، سأعود سريعاً"

منحوه موافقتهم، يستكمل كنان الحديث:

"وهل نملك أعمالاً صالحة؟"

"لا تخبرني بأن جميع أوقاتنا ذنوب، نعم أخطأنا جميعنا، بل ارتكبنا كبائر، وتجرأنا على الله بفعل المهلكات، لكن هذا لا يمنع أن هناك أعمال صالحة قمنا بها"

يستحسن كنان قولها بهزة من رأسه فتردف:

"هيا يا كنان، لقد تعرت ذنوبنا أمام عيوننا جميعاً، لماذا سنخفي الصالح؟"

عاد سفيان وجسده يقطر بالمياه، يبدو أنه غطس بداخلها ليخفف من حرارة جسده، التقط القليل من كلامهم وهو في طريقه للعودة إليهم:

"أنا، سأبدأ.."

ينظر لعينيها مباشرة ويردف بعاطفة:

"أتذكرين يوم سقطتِ في النهر، ونحن في زيارة جدتي في الريف؟"

ضحك كنان وهو يتذكر تلك الواقعة فأخرسه سفيان بنظرة حازمة، ليعود إلى عينيها مجدداً:

"أوشكتِ على الغرق وأنا أنقذتكِ"

ضحكت ريفانا من ذكراها لتلك الواقعة ترد على أخيها ساخرة من كنان

"يوم جبُن كنان متحججاً ببرودة الطقس"

انطفأت عينا كنان بغضب قائلاً بصوت قويّ وهو يقف يشير إليها بكفه:

"لا تنكري بأني أنقذتكِ من الحصان الذي أوشك على رفسكِ وأنتِ تستكشفين المكان"

تجيبه بكبرياء:

"أنا أخفيت عن خالتي عودتك إلى التدخين بعد أن توقفت عنه"

تتابعهم رتيل تهز رأسها بلا فائدة

"حسناً، تلك أعمالكم الصالحة!"

تقول بسخرية:

"وماذا عني؟"

يقول كنان عنها:

"صاحبة عقل راجح، هدوء في حل المشكلات، الدقة في فعل الأشياء "

ترد كلماته:

" عمل صالح يا كنان وليست مواصفات للزواج"

فرقعت ريفانا أصابعها:

" مكوثكِ مع أمي واهتمامك بها أسبوعاً كاملاً في آخر أيامها"

" كنت مضطرة لسفر أمي ومرضكِ"

يحسم سفيان الأمر

" رفضكِ لي، ألا يُعد هذا عملاً صالحاً؟ ابتغيتِ به وجه الله.. لربما تبت بعد تعطيلك لزيجاتي"

ترقرت الدموع بداخل عينيها... حقاً فعلت، رغبت لو ترده، لو يفكر لمرة واحدة في سبب عدم تيسير زواجه، ربما بسبب ذنبه العظيم.

يتنهدون بعجز، لقد قضوا سبعة أيام كاملة ولم يهاجمهم شيء، أو حاول أحد إزهاق أرواحهم.

قال كنان:

"مهلاً.. الساعة، رقم واحد.. يشير إلى التوحيد، ريفانا!"

وتقول رتيل:

"البلح سقط من فوق النخل بعد أن تاب سفيان وأقر بعدم العودة للزنى مرة أخرى"

قالت ريفانا:

"وكذلك التين سقط بتوبة كنان، والأسماك لنا"

بدأ الأمل يشتعل داخل صدورهم بتفسيرهم بعض الرموز..

قالت ريفانا تدور حول نفسها:

"السيول والأمطار فور ذكرنا لله، الجبال آوتنا من الصقيع وتقلب الطقس، الأشجار نمت لضمان حياتنا واستمرارها، دوام النهار لزيادة إرهاقنا ومنحنا الوقت للعمل، منحنا الراحة حالما تعبنا فرزقنا الليل، والقمر لنحسب لياليا"

ازدادت حماستهم بسماعهم التفسيرات بينما تساءل سفيان:

"تبقى سؤال واحد"

ينظر إليه الجميع في انتظاره، فقال بصوت عميق، متردد:

"كيف نعود؟"

....

يقف كنان بطوله الفارع ينظر إلى حصته من الطعام، يراها ناقصة، ليس كما تركها بالأمس قبل أن ينام.

ومن غيره يقيس الأشياء وحجمها وكميتها بعينيه، وهو الذي يضع القرش فوق أخيه، ليشتري ما يريد.

يتلفت حوله، يعلم بأنه استيقظ قبلهم، لقد أيقظه الجوع، فجاء يشبع وحوش معدته ليعود من جديد إلى الكهف يكمل نومه.

وفي ركن شبه مظلم من الكهف فردت رتيل ذراعيها تتمطى، وقد ظبطت ساعتها الداخلية على الاستيقاظ يومياً في هذا الوقت، لتستحم وتغسل ثيابها.

تقوم على عجلة من أمرها، والحرارة تغزو الكهف بشدة، تتوجه نحو المياه وتندس داخلها.

يتسلل سفيان خلفها ليرى أين تذهب في هذا الوقت من الصباح، ولماذا يستيقظ دوماً ولا يجدها؟

يراها خلف الجبال، يرى ظهرها، يدقق بعينه كثيراً ليفهم ما الذي تفعله، هل تنتحر، ينظر إلى ملابسها المتكومة جوار قدمه، حتماً هي لم تنزع ملابسها لتنتحر.

تزداد ضربات قلبه، ويزداد تعرقه وهو يتخيل ما تحجبه المياه عن عينيه.

يشعر بحمم جسده المشتعلة التي تزيد من لهيبها حرارة الشمس فوقه.

يصارع كي يمنع نفسه عنها، يقترب فتغمر المياه قدمه، فيرجع إلى الخلف.. خطوة للأمام.. إلى الخلف.. حتى غض بصره عنها، وعاد إلى الكهف بخطوات شبه راكضة، يفر من نفسه قبل فراره من فتنتها التي تثيره من هذا البعد.

يلتقط حبات التين يتناولها بصلابة تشبه تماسكه الآن، يقبض على كفه ببضعة حبات، لتلتقط عينيه قطعة من القماش مدفونة تحت حبات التين، يجذبها ببطءحتى ظهر بنطاله المفقود، ومنه إلى قميصه..

لقد استعاد ملابسه، أخيراً وجدها ليتحلف بسترها.

يخلع عنه بلوزة ريفانا التي يلفها حول خصره، ليرتدي ملابسه سريعًا، يمسح على شعره يحسن من صورته، يجذب قطعة خشب ناتئة من شجر الأراك، يلوكها بفمه ليصنع مسواكاً، رغم نظافة أسنانه من كثرة أكل البلح الأحمر، إلا أنه أرادها نظيفة ناصعة.

يستمع إلى ضحكتها من خلفه:

"انظر إلى نفسك، يالك من أنيق، أين وجدتهم؟"

يلتفت إليها ورائحة الريحان المنبعثة منها تمنحها هالة من الانتعاش تهفو إليها نفسه، بعين غائمة يتذكر شعرها الأسود ملتصقاً فوق ظهرها وهي داخل المياه، تستطرد بعد أن رأت مشاعره طغت على وجهه:

"هل أنت مستيقظ منذ وقت طويل؟"

يتجاهل سؤالها الأخير ليجيب الأول، يشير نحو التين:

"وجدتهم هنا"

تلين ملامحها، تستقبل كنان الذي استيقظ للتو، متفاجئاً من رؤية سفيان أخيراً مكسواً بالملابس..

يربت على كتفه غير عابئ بمكان وجودهم.

"مبارك عليك الستر يا هذا"

لقد مست كلمات كنان قلبه، حقاً شعر بها تخترقه، الستر!!.

كم مر من عمره وهو يفتقد هذا المعنى، بل ويستغني عنه بإرادته.

وكم مرة ستره الله ولم يفضحه وتمادى بكبر وعداء.

تستوحش ريفانا الكهف وقد استيقظت ووجدت نفسها وحيدة بالداخل، تستمع إلى همهماتهم بالخارج، كلمات عن الستر وما شابه، حتى خرجت ووجدت أخيها يرتدي كافة ملابسه، ووجهه مشرق، يتمسك بقميصه، يفرد أكمامه، يغلق الزر العلوي بينما الطقس خانق.

يراقبه الجميع، لكن لا أحد يستشعر شعور الستر بقدره.

....

تستند إلى الكهف بكتفها تراقب ريفانا وقد جافاها النوم في تلك الليلة، تراها تتسلل إلى الخارج، تقترب من حصة كنان، تكمش قبضتها على جزء من حصته، لتفرغها في حصتها هي-رتيل-عاجزة عن تفسير ما يحدث، تغلق عينيها وهواء الليل يجعلها ترتجف، فتعود أدراجها جوار كنان، في ركنها المعهود.

وفي الصباح استيقظت على صياحه الحاد:

"من الذي اقترب من حصتي، ليست المرة الأولى، لقد تجاوزت الأمر لعدة أيام لكن لن يفيد صمتي وحقي يضيع، أريد أن أعرف من الذي يسرقني؟"

تقف على أعتاب الكهف من الداخل، وجهها نحوه، تفتح فمها لتنفي عنها وسفيان التهمة، فهي تعلم بأن ريفانا من سرقت، تغلقه، تهم في فتحه، فكيها يستجيبان بسهولة لكن لسانها غير قادر على صياغة الأمر.

تنحت إلى الداخل، تتمدد في مكانها، تقرر الصمت، هي لن تشعل الفتنة بينهم، سيمر الأمر، ربما يفهم كنان أن ما حدث بفعل الطبيعة وليس بسببهم، هم بحاجة لبعضهم، لا يمكن التفريق بينهم الآن، في هذا الوقت العصيب بالذات، تتسائل:

"وماذا لو كان وقت راحة، هل ستعود للوقيعة بين الناس وإفشاء الأسرار في وقت الرغد، تهمس بصدق:

"لا.. وربي لن أفعلها من جديد"

يتثاقل جفناها بعد أن عم الهدوء بالخارج، بينما تلك الفتحة في ملابسها موضع قلبها تنكمش حتى تعود كما كانت، ولا يظهر منها شيء.

....

خمسة أيام لاحقة ليصل عدد أيام وجودهم على هذه الجزيرة اثني عشر يوماً منذ تعاقب الليل والنهار عليهم، مخزونهم من الطعام أوشك على النفاد، وبعد أن كان كنان أقلهم في حصة الطعام، استيقظ ذات يوم ليجد حصته تضاعفت، وكما سأل من قبل من أنقصها ولم يجد جواباً، فلم يجد جواباً آخر عن سبب الزيادة.

تقترب ريفانا التي كانت أقلهم طعاماً الآن، تحمل خمس تمرات فقط، ربما هو قوت يومها لكن الغد، لا تعرف من أين ستأكل.

تذهب إلى كنان، تتودد إليه:

"كنان، هل يمكنك اقراضي بالقليل من التمر، سأرده إليك عندما يرزقني الله مجدداً"

منحها ما طلبت، وما حددت.

في اليوم التالي بدا مخزون البقية في النفاد؛ ففعلوا كما فعلت ريفانا وكنان لبى.

حتى هذا اليوم، يقف أمام حصته التي انتهت، وفقد جميعهم مخزونهم من الطعام، لازالوا في بداية اليوم والجوع ينهش جدران بطونهم، يقفون ثلاثتهم حوله.

يتطلعون إلى البحر، الأشجار، انتبه كنان إلى حركة في المياه فاندفعوا أربعتهم نحو البحر للصيد، تضرب رتيل صدر أخيها تستوقفه:

"سنرد لك ما اقترضنا وزيادة"

يزيح كفها عنه يقول بحماس:

"أنتم لا تدينون لي بشيء، ولا أنتظر منكم رد الدين ولا زيادته، هل تعتقدين يا رتيل بعد رؤيتي لعطايا الله بصدق توبتنا، بأني سأعود لما كنت، وهنا؟، ولا زلنا عالقون على تلك الجزيرة؟"

تشاكسه:

"إذاً سنردها لك عندما نعود"

ينظر إلى السماء بلامبالاة:

"إذاً، سنظل عالقين هنا للأبد"

يضرب رأسها يدفعها أمامه، يزاحم أبناء خالته في الصيد، بحماس، وصدق.

لحظات واجتمعوا حول النيران لشي الأسماك، انتبهت ريفانا إلى موضع جيوبه، لقد اكتملت، فيقول:

"لم انتبه للأمر إلا بعد ما حدث، لقد عاد كما كان بعد مزاحمتي لكم في الصيد، وصدق نيتي في عدم استرداد ما منحتكم إياه"

تقول ريفانا بنزقٍ:

"لقد ساعدتك على ذلك، بل وهي أيضاً"

عقدت رتيل حاجبيها تقول مستفهمة:

"كيف ساعدتني؟"

"لقد لمحتكِ وأنتِ تتلصصين عليّ وأنا أنقص من حصة كنان لأزيد حصتكِ، رأيت موضع قلبك يرتق فيعود لموضعه"

"وكيف قل الطعام هكذا، هل كنت ترميه في البحر ريفانا؟"

كان صوت كنان الصارخ، فأجابته بحيرة:

"ربما كان عقاب من الله على حيلتي، لا أعلم، لكني فطنت أن اكتمال موضع قلبها كان بسبب كتمانها أمري، وتأكد الأمر عندما عاد موضع جيوبك كما كان"

قال سفيان وقلبه يرتجف:

"وكيف عرفتِ من الأساس بأننا نختبر كما تشيرين"

قالت بغموض، ولم تُكثر:

"عندما وجدت أنت ثيابك"

التساؤلات التي تضج برؤوسهم أكبر من أن يسألوها، والجميع يفكر في اختبار سفيان الذي اجتازه، القلق تمكن من رتيل، التي تستحم كل يوم صباحاً، تتساءل في نفسها هل رآها، بينما يخطر خافق شر بذهن كنان خوفاً على أخته.

يراقب الانفعالات على الوجوه فقال سفيان بصراحة قاتلة:

"أنا.. لقد رأيت رتيل وهي تستحم خلف الجبال ذات يوم"

سمع شهقاتها، بينما كنان يقترب منه بغضب:

"أيها الحقير"

يتمدد أرضاً يتلقى صفعات كنان القوية، يهتف به:

"توقف يا مجنون أقسم بأني لم أرَ منها شيئاً"

هدأ من روعهِ، أنفاسه تتسارع، فها هو سفيان سينجس عائلته وينظر نحو أخته:

"أقسم أني أحبها، لقد طلبتها مراراً للزواج، لقد كان مطلب أمي قبل وفاتها ولم أستطِع أن أحققه"

"كنت أرى أنها أطهر من أن تقترن بي، أسمى من أن تكون لقذر مثلي، كنت أتمنى لو حققت رغبة أمي وهي على قيد الحياة، لكني استكثرت نقاءَها عليّ"

يستقيم ليقف ويقترب منها يكمل:

"لقد رأيتكِ في البحر، وتراجعت سريعاً عندما وجدت ملابسكِ على الشاطئ"

يلتفت نحو كنان ويقول هائماً:

"أنا أحبها، أريدها زوجة لي، لا أعرف متى سنعود وربما لا، لا أعلم هل نحن في حلم ربما، لكنه لو حلم أريد تذوق شهدها يا كنان، لا أريد أن أغضب الله مجدداً"

تجمع ريفانا شعرها الأسود، لتنزلق خصلتها الحمراء التي انبثقت من بصيلاتها منذ وطأت هذه الجزيرة بخوف، لا تعرف مآل تلك المحادثة، ربما انقض عليه كنان لينهي حياته، تعلم غيرته، هو يترك رتيل تنام في أقصى الكهف، ثم يغطي عليها بجسده الضخم وهو ينام أمامها، فلا يظهر منها شيئاً في نومها.

فتقول بصوت حاسم تنظر إلى كنان:

"زوجها له"

ينظر كنان إلى تلك المختلة أمامه:

"هل تحابين لأخيكِ وتتسترين على فضيحته؟"

"ليست فضيحة يا كنان لقد ستره الله وهذا أكبر دليل على صدقه الذي لن نقيِّمه نحن"

تضج كلماتها بالصحة داخل رأسه، من هو ليحكم وبراءته متمثلة في ملابسه وستر جسده.

تقف رتيل ومشاعر كثيرة تضج بصدرها، فلتكُن له، حتى ولو مرة واحدة بهذا الجنون الذي يعيشونه، تعترف بحبها له، يكبر في نظرها أنه لم يتمادَ.

كان بإمكانه النزول إليها ونيلها غصباً.. لكنه لم يفعل.

ينظر كنان إليها يسألها:

"رتيل، هل أنتِ موافقة على هذا العبث؟"

تقول وقد طغت مشاعرها نحوه:

"أنا لا أعلم جواز ذلك، ولا إن كان حلماً كما يزعم سفيان، ولا أرى مأذوناً أو حتى شهوداً يا أخي، لكني سأمشي خلف كلمتك، سأقيس ما يحدث الآن على ما كان يحدث قديماً، أنت وليي الآن، كلمتك واجبة، وقبولي هو ميثاقي، ولا أعلم ما الجنون الذي أهذي به، لكن.."

تقترب من سفيان الذي يكاد قلبه أن يتوقف من فرط انفعاله، فيسمعها تكمل:

"عدني يا سفيان إن عدنا بأن توثق زواجنا، عدني بأن تظل هكذا حافظاً لنفسك بي أو من غيري، وتذكر دوماً أني سأكون بجوارك للأبد، طالما لا تخون"

يحك ذقنه بقوة، لا يعلم ما سيفعله الآن صواباً أم خطأ، يفتح فمه ببطء ويقول:

"هي حلالك يا سفيان، لقد قبلتك زوجاً لأختي، هنيئاً لكما"

ينظر في عينيها، ليهمسا سوياً وقد أمسك كفيها بكلتا يديه:

"وأنا قبلت"

....

يقف أمامها مسحور، بشرتها التي لم تتأثر نضارتها على هذه الجزيرة وهي تهتم بنظافتها ورائحتها، يغلق الكهف عليهم بصخرة قوية، شعلة من النيران تضيئه.

تقذف عليها من جمالها المتوهج، وترد له حمم حبها الملتهبة.

يمسك كفها يجلسها بجواره، يتأملها كأنه لم يرَ نساءً من قبل، يقرص وجنتها برفق يوشك على التهامها من شدة بياضها وشفافيتها.

ترى لهفته عليها بعين قلبها وتبادله اللهفة مضاعفة، فها هو حبيبها الذي طالما حاربته، تثأر من حبها له بإفساد زواجه.

يضمها إليه بصمت مهيب، وكان ما كان يتمناه هذا العناق، أن يضعها على صدره ليملك الكون بنجومه:

"أقسم بأن لا ترى عيني سواكِ، ولن ينبض خافقي إلا لكِ، أن تكوني في عيني نساء الدنيا وحور الجنة، أقسم ألا أرفع عيني في امرأة بعد أن جبرني الله بكِ يا رتيل"

وهل هناك أغلظ من هذا القسم لتثق بحياتها معه، تمنحه ما يريد بتعقل، حتى انفلت الخيط؛ ففرت الحبات تلو الأخرى، يجرها نحو نعيم لم تحلم به يوماً، وأمان لم تشعر به إلا وهي بين أحضانه.

مولاتي

سلكت كل السُبل

لعلي أدرك دربكِ

لعلي أغتنم ودكِ

لعل قلبي يرسو بمرفئك

لا تلومي قلباً طريح هواكِ

لا تلومي قلباً يعزف

عشقاً في محرابكِ

مولاتي

أتقبلين قلبي قُرباناً

فهذا القلب شاخ في هواكِ

ووجلت نفسي

من الرفض، من البعدِ

ارفقي بأسير حبكِ

مولاتي[1]

....

[1] مولاتي خاطرة سلوان عامر

"لماذا لم نتزوج مثلهم؟"

كانت كلمات كنان لها، تهادنه ببؤس

"ربما غداً"

يحاول تصنع عدم اللهفة

"هل يعد هذا وعد؟"

تسبل جفنيها بتعب، وتقول:

"أنا منشغلة باختباري يا كنان وأنت تفكر في الزواج، أنا أفكر في الثبات، أشعر أن اختباري لن يكون سهلاً بالمرة"

"لمَ التشاؤم؟"

"جميعكم اختُبرتم على قدر ذنوبكم"

تنهت من ثقل ما تحمل

"أنا ذنبي عظيم "

"لقد تُبتِ"

"أجل"

"لماذا تحملين هم الاختبار إذاً؟"

"لأن الثبات أصعب من التوبة يا كنان"

"هل تظنين بأننا سنعود فور انتهاء اختبارك"

تجيبه بحيرة:

"لا أعلم"

تفكر بجد:

"ذلك الضوء الأخضر الذي رأيناه يلتهم موضع قلب رتيل، مؤكد هو من ضرب بنطالك وجعل جيوبك تتآكل"

"إلى أين تريدين أن تصلي؟"

ملابس سفيان، خصلتي الحمراء، أقصد

"إنه ليس بالضرورة التشابه في الرسائل القادمة لنا، ومنه إلى أن الاختبارات أيضاً ستختلف، والمكافآت كذلك، زواج رتيل سفيان ما الغاية منه؟"

تضيق ملامحها بخوفها وتقول:

"أشعر بأن اختباري سيكون سفيان "

علامات الجزع ارتسمت على وجهها، ينادي عليها لترفع عينيها إليه

"توقفي عن التفكير، ولا تظني نفسكِ بالذكاء الحاد لتتوقعي ما هو قادم، ولا تقيسي على امتثالي ورتيل لمخططكِ، إنما هي تدابير الله يا ريفانا، توكلي على الله، واتركي كل الأمور إليه، ألا تثقين به!"

تتذكر يوم الأسماك وهي تخرج من البحر، تتذكر بكاءَها وتضرعها إلى الله، تلك السكينة التي غمرتها وهي تتحدث إليه وتدعوه، فاطمأنت لكلمات كنان وهدأت نفسها:

"هل سنتزوج في الشقة التي أوشكت على تشطيبها؟"

تبسم وقد أقرت الأمر وكأنها توافقه.

"حديقة خلفية رائعة، تحفها الزهور بألوان زاهية، ما إن تستيقظي سترين أجمل منظر يمكن لعينيكِ الجميلة أن تراهم، هذا الجمال لا يمكن أن يرى سوى الجمال يا ريفانا"

"هل هذا غزل؟"

يقول وهو يفرك كفيه

"عفيف"

يتبع كلمته بابتسامة سكنت توتر قلبها، الذي يوقن بأن دورها قد حان

....

البحر هائج كما لم يحدث من قبل، تستيقظ وكنان على صوت صرخات رتيل مستنجدة بهم، ترفعهم الأمواج وتباعد بينها وبين سفيان الذي أوشك على فقد وعيه من شدة الأمواج وقلبها لجسده.

تحاول رتيل أن تعوم نحوه فلا تكاد أن تلمسه فتحيل الأمواج بينهما.

تنغمس ريفانا داخل المياه دون تردد، متوجهة نحو سفيان بينما كنان يتوجه لإنقاذ أخته، وقد لمح صدق حديثها ليلاً عن أخيها، وأن سفيان هو اختبارها للنجاة، يتلاطم مع المياه كي يصل إليها، يمسك بها بقوة والجانب الذي يجمعهم قد هدأت مياهه قليلاً، يضرب الأمواج بذراعٍ والآخر يحتوي رتيل التي خارت قواها ما إن أمسك بها.

ريفانا لم تصل بعد إلى أخيها، ترى رأسه تنغمس داخل المياه، يغرق، سفيان يغرق، تهمس:

"يا رب، يا رب، النجاة يا رب"

تنزل بداخل المياه تبحث عنه فلا تجده، هل هي لعنة أخرى ستفرقه عنها كما السابق، لا تستطيع أن تفكر، وكل همها هو إيجاده، فقط تراه وتعرف مكانه.

خادمها، من يخبرها بأماكن الأشياء، الأعمال المدفونة، الشاب الضائع، ال...

ستستدعيه لمرة واحدة، واحدة فقط وبعدها تتوب.

ترتفع مجدداً تنهل من الهواء لتعود إلى داخل المياه تبحث عنه، تتعمق أكثر وأكثر، حتى أنها إن وجدته، لن تتحمل رئتيها الصعود به.

تشعر بأنفاسها تخور، أطرافها تذوب، تهمس في داخلها:

"توكلت على القدير، الواحد الأحد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد"

أغمضت عينيها، وهي تشعر بأن روحها تخرج، والظلام يعم، وكأنها ذهبت إلى يوم الحساب.

....

يسعل بشدة لتخرج المياه من فمه، فتغمر طاولة السفرة أمامه، فيستمع لصوت خالته:

"ما الذي أصابك يا سفيان!، انتبه يا ولدي"

تتسع نظراته نحو خالته التي تمكث أمامه، ويسمعها تقول:

"قم وأخرجْ زوجتك من الحمام وأخبرها أن الطعام سيبرد، وأن لدي ساعة واحدة لأعود لوالدها، لم أعتد التأخر عنه حتى هذا الوقت"

يضع كوب المياه على الطاولة، يهز رأسه، إنها شقته التي تربى فيها، لا يعلم أين ريفانا، ولا ما الذي تفعله رتيل في حمامه.

تخرج رأسها من حوض الاستحمام، تبصق المياه من فمها، وكأنها أوشكت على الغرق للتو.

وجدته أمامها داخل الحمام، تلتهم المكان بعينيها، هي في حمام شقته، تنظر إليه بهلع، وتقول:

"ما الذي أتى بي إلى هنا؟"

لا يعلم من أين يبدأ، ولا كيف يخبرها، فارتجل قائلاً يشير إليها: والدتكِ"

ثم يشير إلى صدره مردفاً

"خالتي، قالت لي بأن أخرج زوجتي من الحمام"

تمسح وجهها من المياه:

"كيف؟"

يقوس شفتيه لأسفل:

"ليس لدي إجابات، لقد استفقت قبلكِ بثلاث دقائق، أبصقُ المياه في وجهها، ويبدو أني أفسدت الطعام بالخارج"

تنظر إليه كالبلهاء:

"ما الذي يحدث؟"

....

يستفيقا معاً والأمطار تغسلهما خارج الشرفة، ممددين أرضاً، هي تفترش صدره، وهو على ما يبدو كان مكبلاً لخصرها.

طرقات على بابهم، صوت والده يخبره

"كنان، لقد أحضرت لك ما طلبت مني بالأمس، أخبر زوجتك أن هذا الوحم سيصب فوق رأسي وأمك، لقد مللت هذا الدلال، لقد قدت لثلاث ساعات متواصلة لأحصل على هذا التين لأجلها، وربي لو طلبت المرة القادمة مشمشاً وهو يغرق الأسواق لن أحضره لها، أنا سأغادر لألحق والدتك وأوصلها، فزوج أختك لن يفعل وقد التصق بالمنزل منذ زواجه من رتيل"

تبع كلماته بضحكة خشنة من صوته الجهوري الذي ورثه كنان عنه.

لم يجِبه، وبعد لحظات سمع صوت الباب يغلق، لابد وأنه غادر، يمسح عن وجهه المياه، يلتفت وهي بين ذراعيه إلى الزهور التي أغدقها السحاب بأمطاره.

يوجه سؤاله إليها ولا زالت مياه الأمطار تغرقهما:

"متى تزوجنا؟"

"لا أعلم، آخر شيء أذكره، هو ظلام دامس سقطت بين براثنه"

تسعل وقد أغرقها السيل، تستقيم لتخرج من الشرفة مسرعة، متلهفة إلى الهاتف تتحدث إليه، لقد اختفى أمامها في البحر ولم تجده، يرن هاتفه، ويخفق قلبها مع كل رنة، حتى استمعت إلى صوته، فسالت دموعها بشدة

"سفيان، أخي، أنت بخير، حقاً، أنت بخير، حمداً لله.. حمداً لله"

يلهج لسانها بالحمد، تستجمع أنفاسها لتسأله عما حدث، فانغلق فمها بصمت مطبق، في ذات اللحظة التي توقف جميعهم عن طرح التساؤلات خوفاً من نبش قبور ذنوبهم، وربما العودة لذلك السراب الذي كانوا فيه كعقاب جديد على تطاولهم.

يقف خلفها كنان كالتمثال الصلب، لا ينتظر منها قول شيء جديد، يساعدها على إنزال الهاتف عن أذنها بهدوء، يلفها إليه.

يسحب من الهواء ما يستطيع ليملأ رئتيه برائحة المطر المنبعثة من كافة نوافذ غرفته.

يميل برأسه يميناً، يسبل جفنية، مستشعراً نعمة الستر داخل جدران منزله، يقربها منه يدفن رأسه في شعرها الذي اختفت من سواده تلك الخصلة الحمراء، يقول بهدوء:

"انتهينا ريفانا، سنتوقف هنا، لن نسأل عن أشياء قد تسوءنا، سنبدأ من حيث توقفنا، سنمضي ولن نلتفت، ما حدث سننساه، لن نبحث فيه أو عنه، لقد علمنا الدرس.."

تبتعد عنه بعينين ندية، فيسألها:

"أليس كذلك؟ "

تومئ برأسها بسرعة وقوة تؤيد قوله، بينما لازال سفيان معها على الهاتف ولم يغلق ليتسلل صوت كنان عبر مكبر الصوت لأذن رتيل التي تجاوره، تهز رأسها هي الأخرى توافق قول أخيها، فكل شيء انتهى ولن يعود، كما لن يعودوا.

....

وعين على جزيرة مقفرة
انشقت عن الأرض جبالها
لنعي أنها ذنوبنا تقف أمامنا شامخة
لنحني خجلاً هامتنا أمام رب عصيناه بكامل وعينا
لتنبت لنا الأرض أشجار في غير أوانها، ثمارها غير ناضجة
انتظرت منا لحظة استغفار صادقة ومنحتنا بكل سخاء
ما أشبع جوعنا وما كنا جوعى إلا لرحمة ربنا.[2]

تمت بحمد الله

[2] خاطرة إنجي محمد

محتويات الرواية

إهداء.....5

الفصل الأول.....6

الفصل الثاني.....23

الفصل الثالث.....40

الفصل الرابع.....59

الفصل الخامس.....81

محتويات الرواية.....111

ورحمتي سبقت غضبي

رواية

هالة حمدي

الطبعة الأولى
1442 هـ 2020 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد

جوال: 00201211132879

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com